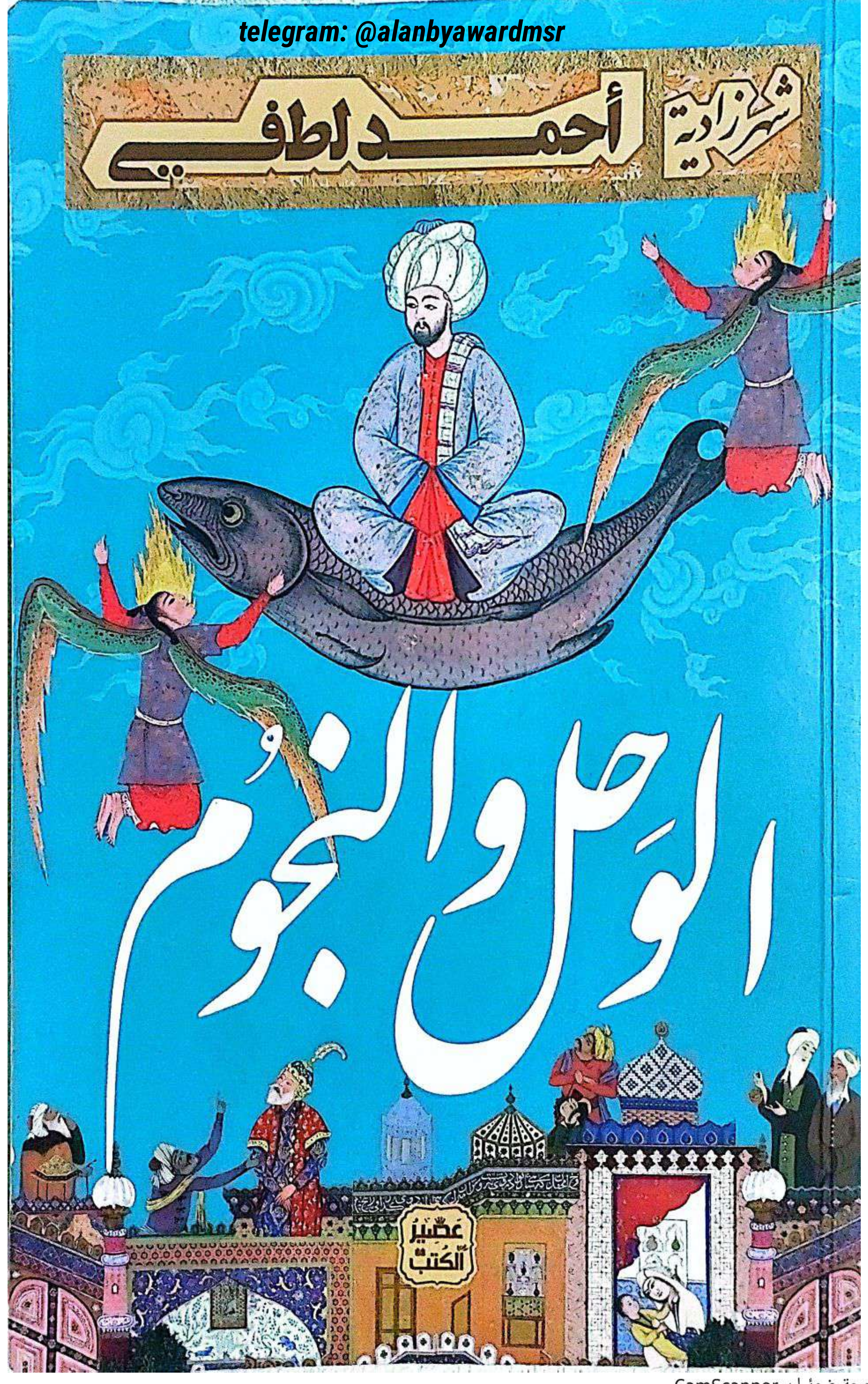

شهرزادية
أحمد لطفي
الوَحل والنجُوم
عصير الكتب

الوَحلُ والنجُوم





لتجارة الكتب

إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

الطبعة الأولى: أغسطس 2022م

رقم الإيداع: 2022/13291م

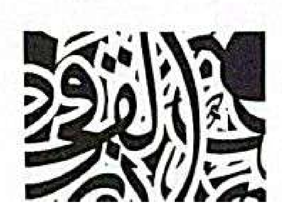
الترقيم الدولي: 978-977-6972-37-7

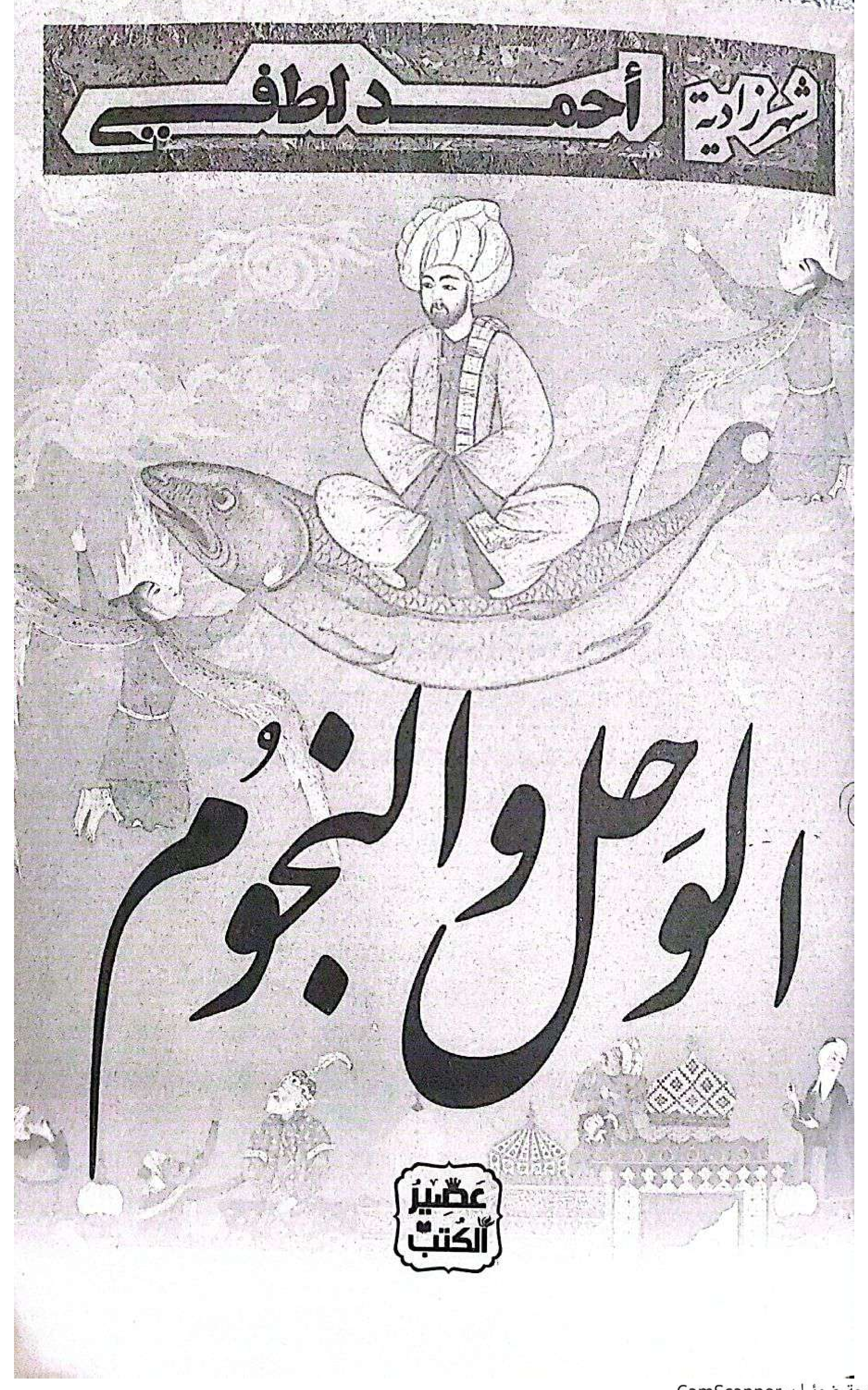
المؤلف: أحمد لطفي

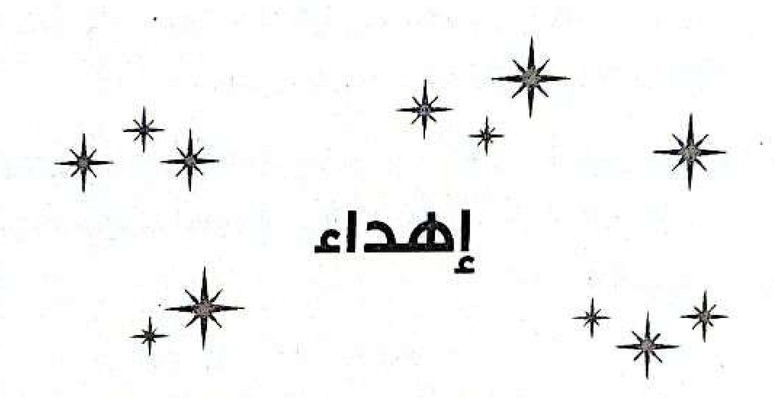
تدقيق لغوي: سلسبيل بهاء الدين

تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار




شهرزادية
أحمد لطفي
الوحل والنجوم
عصير الكتب



إهداء

لعبد الملك بن هشام، عساه يعرفني بالحياة الآخرة،
ويقصُّ عليَّ ما لم يكتبه من أخبار العرب.

وللأستاذ أحمد الديب، إهداء الجدول للمحيط ولسالي،
حيث بدأت كُل حكاياتي..



مُقدمة

كُنت أقصد جلسات أستاذي عبد الملك الخاصة كل خميس. يأتيه الطلاب من كل مكانٍ بالدنيا لا مصر وحدها، في بيته المعروف على أطراف بلدتنا، فأسمع منه الحكايات التي رآها بعينَيْ قلبه وروحه.

استأذنته في جمع بعضها بكتابٍ فأذن لي، بعد إلحاحٍ طويل وبعد أن رأى بعض الصفحات التي كتبتها، لكن إذنه كان مشروطًا بشرطٍ غريب، وهو أن يموت -عليه رحمات الله-.

***

كيف لشجرةٍ أن تحب نضوج ثمرتها بعد موتها؟! كيف له التأجيل كل هذا؟! ربما قد أحس يوم أذن لي، بدنو أجله، فما مر الهلال مروره، إلا وهو مرتاحٌ في قبره، وحان وقت نشر بعض حكاياته.

***

اخترت في البداية من حكايات الأستاذ، حكايته عن الحبيبين أجأ وسلمى، ثم انهيار سد مأرب الذي تلاه هجرة قبائل اليمن، وحكايته التي سمعها من النوق الحائدة أمام نفق الحارث الجرهمي المؤدي إلى كنوز الكعبة، وحكايته التي سمعها من نائلة الجُرهمية التي هاجرت مع أهلها اليمنيين بعد انهيار السد، وقد رتبتُ بعدهم الحكايات ترتيبًا حاولت فيه تدريج الزمان وضبطها في سياقه المتصاعد قدر ما استطعت. وكان الأستاذ يحكي هذي الحكايات تعليقًا على مُجريات حياتنا المعاصرة، وكان يبدأ كل حكايةٍ بقوله المُعتاد:

«بسم الله المُتعال، قال لي شيوخي وأقول، فلان صاحب قال وفلان صاحب حال، وإني أريد، سلك الطريق، علَّ السعيد أنال، فاللهم اهدنا الصراط المستقيم، لا مغضوبًا عليه ولا ضال. أما بعد..».

ثم يبدأ في سرد الحكاية..



حبيس الجبلين



قال المُفدَّى بن عمليق الطسمي:

أنا الشاهد الوحيد الباقي، أنا الذي رأيتُ كل فصولَ الحكاية، وربما لذلك لم يُصبني الموت. أقف الآن فوق الجبل الغربي جوار أجأ فأرى كل الماضي أمامي، أراه جبالًا سوداء من خلفها الموت، الموتُ الذي اقترب، لكني لم أعد أخاف منه. كل يومٍ أموت، رأيتُ من مكاني هذا ثلاثة جبالٍ تُخسف. كل يومٍ أشتاق، لا الموت يأتي ولا الشوق يموت، وما زلت لا أعلم لِمَ تُخسف الجبال فجأة.

***

من أين أبدأ الحكاية بالضبط؟ الأيام كثيرة، والزمان يطوي الناس ويمضي. لماذا نسيني هنا؟ سأبدأ باليوم الذي فزعنا فيه على صوت العرافات بشوارع جنة دنيانا، ومملكتنا العظمى اليمامة: «نذير شؤم، نذير شؤم».

كُنا يومها فوق الأسوار الجنوبية، الملك وأبي وأنا. كُنت صغيرًا، لم أكمل عد عمري على يديَّ، لكني أتذكر شُعل النار على المدى حولَ الجنود، كانوا مُخيفين، يُشبهون نجوم الموتى الخافتة، عرفت أنهم جنود التُّبَّع حسان الذي يستعد للهجوم علينا، لم أستشعر التهديد حتى بعد أن أشعلوا النار في كل البساتين الجنوبية، وحتى بعد أن غطى الدخان الأسود شمس مدينتنا.

***

تنهد الملك مستسلمًا ونظر إلى أبي، فأمره بتجهيز جيش اليمامة كله، من طسمٍ وجديس. وبقيتُ مع الملك ليلتها. كانت يده باردة، شعرت بها ترتجف، خِفت حينها رغم عدم فهمي لما يجري، وبعد تجهيز الجيش بقلب الليل، أخذني أبي إلى بيتنا، وفي اليوم التالي صاح المنادون في الشوارع: «مات ملكنا، مات ملكنا».

***

ضحك أبي وخرج بلباس حربه، وقال لأمي: «إما أن نصير ملوك اليمامة وإما أن تدهسنا خيول حسان».

لم تبتسم أمي، ولم تحزن، كانت عيناها تنظران إلى عالمٍ غير عالمنا، كأنها غارقةٌ في الهم، الهم الذي أحاطها من كل ناحية؛ فقد كان أخي الكبير من الجنود الذين خرجوا لملاقاة التُّبَّع حسان، وأرسل أبي أبناء أخي الصغار ليتعلموا في مدينة البتراء في الشمال، حتى زوجة أخي كانت تصرخ منذ الأمس في ألم الولادة، وأمي وحيدةٌ وسط كل ذلك.

***

مر اليوم الأول ولم يعد الجيش، وظلت زوجة أخي في ولادتها الصعبة، سمعنا البكاء بعد ساعاتٍ طويلة؛ بكاء الطفلة وبكاء أمي على زوجة أخي. سألتُ أمي:

- ماذا يعني الموت؟

- شخصٌ يطويه الزمان فلا تراه بعدها.

قالتها وهي تبكي، وقد طواكم الزمان كلكم وبقيت أنا هنا، فوق هذين الجبلين وحيدًا، لماذا نسيني الموت؟

***

لم أفهم الموت حينها، لم أكن لأحب زوجة أخي فأفتقدها، لكني عرفتُ معنى الموت بعد مرور ثلاثة أيام، عندما سمعنا بأن الجيش عاد منتصرًا وعاهدوا التُّبَّع حسان على الأمان، يومها رأينا الجنود يجوبون الشوارع حاملين الرايات الدموية، كانوا يُشبهون الجبال، تهابهم بلباس الحرب فوقه الدماء والطين، لكن أبي جاء من خلفهم يحمل فوق كتفه أخي، كانت الشمس خلف كتفَيْ أبي وجثمان أخي كأنها تختبئ، ووضع أبي الجثمان على الأرض، وهرولت أمي تجاهه كالعصفور المذبوح حاملةً المولودة، ظلت تصرخ: «هذي ابنتك، جميلةٌ مثلك، قبِّلها».

***

مر اليوم ثقيلًا، بين بكاء أمي وثبات أبي. لأول مرة أراه مُشابهًا للسيف، عيناه تلمعان من شيءٍ غير البكاء، يختلس ابتسامةً بين الحين والحين. لم أفهمه، ولم أفهم الحاجب الذي جاء وقال: «نستعد الآن للذهاب إلى القصر يا مولاي».

سألت، أيُّ قصرٍ هذا الذي سنذهب إليه، قصر الملك؟ فرأيت جموع الناس مع الغروب تصيح أمام بيتنا: «يحيا ملكنا الجديد عمليق هازم التُّبَّع حسان».



قال المُفدّى بن عمليق الطسمي:

لماذا يتجبر الإنسان حين تواتيه الفرصة؟ لماذا يُحب الناس أن يعلوا فوق بعضهم بعضًا، أن يملكوا القوة، قوة الإخضاع؟ لماذا يصير الملوك آلهة؟

بعد أن التفَّ الناس حول أبي وصار الملك الجديد، خرجنا من بيتنا مُحاطين بالهتافات، ركع البعضُ أمامنا، ورمانا الآخرون بالورود، حتى فُتحت أبواب القصر وظهرت ضحكات أبي بصوتٍ عالٍ، نظرت إلى أبي فبدا غريبًا؛ جلده صار أدكن، جسده صار أضخم، خِفت منه، وخافت منه ابنةُ أخي حتى بكت. كان كل شيءٍ جديدًا، القصر والناس واللباس، وأبي، أبي الذي أشار إلى المولودة بذراعه الجبلية وقال: «سأسميها سلمى».

وأشار إلى أحد الخدم وقال: «تذهب إلى اليمن، وتأتيني بخير مرضعةٍ هُناك».

***

خرج الخادم، ودخل كلٌّ منا جناحه الجديد؛ أنا في الجناح الأصغر المجاور للحديقة، وأمي وأبي بقلب القصر المؤدي إلى باب السور الأعظم، وأمامنا بهوٌ كبير، تُطل من أعلاه غُرفةٌ وحيدة، سكنتها سلمى ومُرضعتها العوجاء التي وصلت بعد شهرين.

لم أكن أتخيل أن أحدًا سيُحب سلمى كما أحبتها أمي، لكن العوجاء فعلت، بل وأحبتها سلمى كما لم تُحب أحدًا منا؛ أحبتها أكثر مما تخاف أبي، وأكثر من بكاء أمي على أخي المقتول، وأكثر من تَملُّك المُلك من أبي، أبي الذي أمر بإحضار أكبر صُناع المدينة، وأمرهم بأن يصنعوا كُرسيًا من الذهب الخالص، وأن يصنعوا تاجًا من الياقوت، بُهت الصناع وسألوا: «من أين نأتي بكل هذا الذهب يا مولاي؟».

***

لا أتذكر بماذا أجاب يومها، ولا يهمني كثيرًا، كل شيءٍ طار. الضوء من هذي الشمس فوقي أغلى من الذهب والياقوت، روح أجأ جواري تبكي وأبكي أنا كل هذا الزمان الذي مر، لماذا غيَّرك الذهب يا أبي لماذا؟

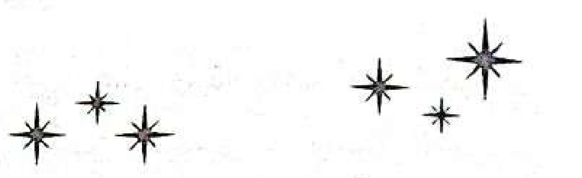
***

أُمسك الآن حفنة من الرمال وأتذكر ذهب القصر بيديَّ. ما الفرق الآن؟ ما الفرق؟ أسأل الصحراء فلا أسمع إلا بكاء روح «أجأ» جواري، يخنقني البكاء فأذهب إلى الجبل الشرقي، أمر بطريقي على آبار طيء، فألعن كل آثار الدم الباقية التي تُصر على تذكيري، قُتل الأسود بن عفار أمام عينيَّ هنا، أُبعد عينيَّ عن آثار دمه، ويعطيني الصعاليك ما يكفيني من ماءٍ وتمرٍ لشهرين، أجلس الشهرين جوار روح سلمى، هادئةٌ لا أسمع منها غير بكاءٍ مكتوم مثل بكائها طيلة حياتها، آهٍ يا سلمى، لم لا تُحدثينني بصوتٍ مسموع؟ أتذكر يوم نطقتِ اسمي للمرة الأولى، كان ذلك بعد أن صنع أبي الكرسي الذهبي بعامين، انزعج أبي منكِ لأنك عجزت عن نطق اسمه، بل وجعلتِ كل البيت يضحك عندما حاولتِ، كان يعقد حاجبيه في وجهك ليُضحككِ، فتخافين منه أكثر. آهٍ منكِ.

***

لكني لم أرَكِ تخافين مثل ذاك اليوم الذي خرجت فيه العوجاء من القصر بعد أن انقضى العامان، ظللتِ تبكين حتى أمر أبي بإحضار العوجاء مرة أخرى؛ فصارت من أفراد القصر. كبرتِ يا سلمى في حجرها بعد أن ماتت أمي، كبرنا مع اتساع القصر ومُلك أبي، مُلك أبي الذي شمل كُل اليمامة، حتى أبناء عمومتنا جديس الذين لم يخضعوا لحاكمٍ قط. أتذكر يوم جاءنا وفدُ جُديس وعلى رأسهم الأسود بن عُفار مُعلنين الولاء. وقف أمامهم أبي مثل خيمة التُّبَّع حسان، كأن الجميع صغروا فجأة، وقال: «نحنُ أبناء عم يا ابن عُفار، وصالحكم صالحنا».

فرحت جُديسٌ بالكلام حتى ركعوا، وتزوجوا من نسائنا، وصارت عين العروس بيننا وبينهم مشاعًا لعرائسهم وعرائسنا، وتركهم أبي يدورون بأحيائنا، بل واختار منهم كثيرًا من الجند، وجعل قادة الجُند يُصاهرونهم، لكنه لم يدع قيادة الجُند إلا للطسميين، وما زال الناس -كل الناس- طسم وجديس، يهتفون: «يحيا ملكنا عمليق، هازم التُّبَّع حسان». لماذا يصير الملوك آلهة؟



قال المُفدَّى بن عمليق الطسمي:

في كُل مرة كُنت أرى ما يفعل أبي؛ كُنت أسأل، من أهم الناس عنده؟ أنا أم سلمى أم شخص آخر؟ كنت أشعر بأنه يكرهني، لا يُحب أن يقترب مني أو يحدثني، لم أكن أشعر بذلك قبل أن يصير ملكًا، ماذا حدث؟ أيكرهني أم يُخفي حُبي؟

سألني ذات يوم:

- من أقوى الرجال؟

- النبي سليمان الذي نحت القصر بالحجر.

غضب مني وضربني على كتفي، ولم يكلمني لأسبوع.

***

بعد الأسبوع؛ جمع كل شبابنا الفقراء من طسم، وعقد بينهم المبارزة وسباق الخيل، واختار منهم عشرة ليأكلوا معه، لم أفهم حين اختارهم، لكن ما إن جلسوا حوله في بهو القصر حتى سألهم:

- من أقوى الرجال بالدنيا؟

- ملكنا العظيم عمليق.

قاموا جميعًا وقالوها بصوتٍ واحد، إلا واحدًا، لم يقم، لكنه قال: «أقوى الرجال قد انقضى زمنه، أقوى الرجال ماضٍ، نتذكره فنقول كان، وأظن أبناءنا سيقولون «مولانا عمليق أقوى رجلٍ كان»».

***

كان القائل مُختلفًا عنهم، عيناه مُلونتان، وجهه نادرٌ مثل الثلج، وجبهته غائرة، ولولا رأيته بعينيَّ يغلب كل أقوياء طسم، لما صدقت أنه يجلس معهم.

ابتسم أبي، ونظروا جميعًا إليه، ونظر هو إلى عينَيْ أبي ولم يُخفض بصره، كأنه يتحداه، لكن أبي أشار إليه قائلًا: «عُيِّن رباح قائدًا للجند».

***

لم يأخذ رباح وقتًا ليعي سياسة أبي، حتى رأيته يقف أمام الناس في البهو ليُعلن زواج أختيه هند وحذام من رجلين جُديسين، بل واختار الأسود بن عُفار ليُلقي خُطبة العُرس، العُرس الذي ثبت أقدام أبي فوق أرض جُديس وكل أراضي وادي العارض الخصبة. وقف أبي حين جاءته محاصيل العارض لأول مرة بعد العُرس ونظر إلى رباح مُبتسمًا وقال: «سلم العقل والذراع يا رباح».

كانت هذي أولى خطوات رباح الواثقة نحو القصر، حتى لم تعد تمر ليلةٌ دون أن يُجالس أبي، أبي الذي لم أستطع فهمه، أهو العادل بين القبائل، الحريص على التودد إليهم؟ أم المستأثر بخراج أراضيهم؟ أهو القوي أمام التُّبَّع حسان أم الضعيف أمام رباح؟ حتى إني لم أعلم أهو الرؤوف مع سلمى، أم هو القاسي بإهمالها؟

***

سلمى، آهٍ على سلمى.

كَبرتِ يا سلمى أمام عينيَّ، استدار وجهك وغارت عيناكِ كأنهما تختبئان بعيدًا عن الناس، حتى أذناكِ الجميلتان، كنتِ تُغطينهما دائمًا برداءٍ وردي كنا لا نُميز بينه وبين خديكِ. كنت تختبئين من كل شيء، ولم نكن نراكِ إلا في غرفتك العلوية، ونادرًا ما كنا نراك من النافذة المُطلة على البهو، حتى جاء أجأ القصر، آهٍ على الأيام.

***

أجأ! قُم يا أجأ وحدثني لا تتركني هكذا، أو أُدع الموت فيأخذني إليك، لكن لا تصمت كيوم دخولك القصر.

كان يوم دخوله القصر مشحونًا، فلم يمر شهر على خلاف أبي مع الأسود بن عُفار، الخلاف الذي جعل كل الناس بالقصر تتنصت، حتى سلمى نظرت من نافذتها العُلوية، وصاح طاووسها من الضجر، ووقف الأسود بن عُفار ناظرًا إلى أبي بعينيه.

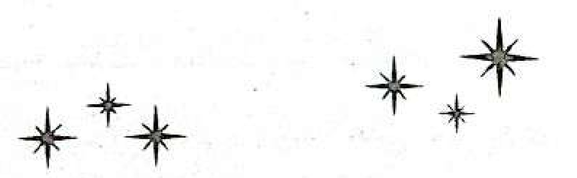
كان الأسود غيرَ مفهومٍ يومها مثل أبي؛ أنظر إليه، فلا أراه مُندفعًا، لكن كلامه كان شديدًا: «كل جنان وادي العارض تأتي إلى مخازنك الجنوبية، ونحن نأكل الرمل وورق الشجر»، وأبي، كان يبتسم كأنه يُشاهد مُضحكيه، لم يُعلق أبي على كلامه، لكنه قام وأخذه من يده وقال: «اخترتك لتنظر مظالم الناس معي يا ابن عُفار، وستجلس جوار كرسيي هذا قبل الغروب، وسيراك الناس وفوقك تاجٌ من فضة». سكت الأسود فجأة، ونظر حوله كأنه يخاف شيئًا لا نراه، ثم قال: «رضيت بُحكم مولاي»، ثم خرج من القصر وما زال يتلفَّت حوله.

***

انفض حينها الخدم وتفاجأت برباح الذي دخل البهو مُصفقًا، قبل أن ينحني لأبي ويقول: «من مولانا نتعلم حسن تدبير الأمور».

ابتسم أبي وتركنا، كان البهوُ كبيرًا علينا، رأيته ينظر إلى الكُرسي الذهبي كأنه أول مرةٍ يراه، سألته: «ماذا فعل أبي لتُصفق له هكذا؟»، ابتسم وقال: «لست صغيرًا يا مُفدى، وأنا أُحبك، لكنك لا تعي السياسة بعد».

تركني حينها ليتبع أبي، فنظرت إلى الكُرسي بإعجابٍ لأول مرة، وانتظرت خروجه من البهو وجلست فوقه، رأيت حينها البهو أمامي مُمتدًا كأنه يسجد أمامي، فأقسمت على نفسي يومها ألا أترك رباحًا حتى أفهم ما السياسة، تُرى، من أقوى الرجال؟



قال المُفدَّى بن عمليق الطسمي:

رافقت رباحًا في كل أسفاره؛ إلى جديس حيث أختيه حُذام وهند حيث قصر النبي سليمان الكبير والرمال فوقه، وإلى اليمن نائبًا عن أبي إلى التُّبَّع حسان للتأكيد على المعاهدة القديمة، وإلى أسفاره الخاصة حيث عرفت كل أنواع النساء والخمر.

الحياةُ معه طويلة، لا تتمنى أن تنتهي أبدًا، كلها عثراتٌ قابلةٌ للجل. المال يفتح كل أبوابه، وحسنُ كلامه يُلين شيوخ القبائل، فيستقبلوننا بالولائم، حتى جُذيمة الأبرش ملك اللخميين بالحيرة، قال له: «إن لم تصر ملكًا، سيقتلك عقلك».

ظل يُفكر يومها بما قاله الملك، وزاد اضطرابه إذ مررنا بعرافة ترتدي السواد، تجلس وحدها عند جبلي طيءٍ هذين، ولا يظهر من وجهها غير سنة وحيدة ذهبية. قالت له: «بيدك ألف سيف، بيدك ألف رقبة».

ونظرت إليَّ، فسمعتُ صوت بكائها، لكنها التفتت فجأةً لتنظر فوق الجبلين، ثم اختفت، بحثنا عنها ولم نجدها، وعُدنا إلى اليمامة نضرب كفًّا بكف.

***

دخلنا حينها البهو وجلسنا قبالة أبي وجواره الأسود الذي ملَّ تاجه الفضي فخلعه جواره، في أثناء نظر مظالم الناس. مرت القضايا عليهما فلا أبي يبتسم، ولا الأسود يرتدي التاج. مر الوقتُ باردًا جافًّا كأن كل الكلام سقط منا، حتى تقدمت امرأة لم نستطع فهم كلامها من بكائها الشديد. فزع رباح لمَّا رآها لكنه لم يتدخل، كانت أخته هند.

وقفت هندُ وجوارها فتى في عمر سلمى، قويٌ يُغطي شعره أذنيه، وجواره أبوه، منحنٍ إلى الأمام، لكنه يلبسُ حلةً حريرية، جعلته لا ينحني لأبي عندما وقف أمامه، لكن هند لم تتوقف عن البكاء.

نظر أبي إلى الأسود مرتين، ثم صاح بغلظة: «اهدئي يا امرأة!».

فسكنت قليلًا وشدت بيدها أكثر على ذراع الفتى، وشد الفتى على يدها. كانا يُشبهان زهرتين، تُحاول ريح الشمال نزعهما عن بعضهما، ورباح لا يتكلم، تخيلتُه يقوم ليُهدئ أخته، لكنه نظر إلى أبي مرتين، وقام، ثم نظر إلى أبي مرة أخرى، وجلس جواري مُجددًا، ظننتُ أبي يعرفها، لكنه سألها:

- من أي قبيلةٍ أنتِ؟
- من طسم، ومتزوجة من جديس.
- وما مظلمتك؟

لن أنسى حديثها أبدًا، كلماتها مع البكاء والنظر إلى ابنها: «أيها الملك، حملته تسعًا، ووضعته دفعًا، وأرضعته شفعًا، حتى إذا تمت أوصاله، ودنا فصاله، أراد زوجي هذا أن يأخذه مني كرهًا، ويتركني بعده ورهًا».

سكتت القاعة كلها مثل الأفق حولي الآن، حتى رباح وأبي، أبي الذي ضبط تاجه الذهبي وأمر بالقبض على هند وزوجها، ونظر إلى الفتى بشفقةٍ مصطنعة أعرفها جيدًا مُذ مات أخي، وسأله عن اسمه. كانت بداية وحدتك يا أجأ، كانت بداية حكايتك التعيسة، لماذا جاءت أمك يا بني لماذا؟ «اسمي أجأ». أُعجب أبي بقوته، كان جديرًا بالإعجاب حقًا، لكني لم أستطع فهم ما جرى ولا تبريره، حيث مال أبي على الأسود وقال: «تكفله أم أكفله؟».

لن أنسى صراخَ هند يومها، ولا صراخها ناحية رباح الذي لم يتكلم، قطعت ثوبها حتى فقدت الوعي، وما زال رباح صامتًا.

انفض الناس وبقيت ورباح أمام أبي والأسود صامتين، شعرتُ برباح يريد الصراخ، لكنه تقدم نحو أبي بوجهٍ مُلون، وقال بأن هندًا أخته، لم يلتفت أبي نحوه، شعرتُ بنظرات رباح الغاضبة إلى أبي لأول مرة، كأن بعينيه خناجر، ربما تجاهله أبي حقًا، وربما كان كلام الأسود أشد: «ألا يكفيك خراج العارض، فتأخذ الفتى وتُذيب قلب المرأة بظلمك؟».

لن أنسى جواب أبي يومها، كأنه لم يسمع عن المرأة وابنها ولم يلتفت إلى غير الخراج، كان يُشبه يومها وجه ملك اللخميين، تظنه يتبدل، متعرجًا مثل كُثبان الرمل التي تغيرها الريح. دافع أبي عن نفسه كثورٍ تائه بين الجبال، قال إنه لا يريد غير الخير للناس.

ضحك الأسود بصوتٍ عالٍ حتى رأيتُ سلمى تنظر، وقال: «الناس! تأخذ منا الخراج فتبسط أرضًا لخيلك وتقول الناس، ثم تبني قصرًا، وتقول الناس، ثم تشتري عبيدًا، وتقول الناس! والله لولا أخاف تماديك بظلم قومي، لغادرت مجلسك».

رحل الأسود، وبقيت ورباح صامتين، كل الأحداث كانت غريبة، حُكم أبي وغضب الأسود وسكوت رباح، كان القصر موحشًا. قُلت يومها لنفسي لو هذي هي السياسة فأنا أول لاعنيها، وخرجنا من عند أبي بعد أن أمرنا بتعليم أجأ فنون القتال، فقال لي رباح: «أفهمت معنى السياسة؟».



قال المُفدَّى بن عمليق الطسمي:

ليتني لم أعرف السياسة، ليتني تركت القصر والذهب وأجأ وسلمى ورضيتُ بأرضٍ صغيرة تكفي طعامي، ليتني مِت يوم حسان ولم أعش حتى هذا اليوم.

حتى الحكاية أخذتني منكِ يا سلمى كما أخذني الكُرسي، الكُرسي الذي يُعمي أتقى الرجال للعثرات، عن أقرب الناس لديه، أعماني عنكِ، بعدما كنت أزورك كل يومٍ في الصباح وقبل النوم، آخذك لأعراس أقرانك وأُوصلك بيديَّ إلى العين، بل وذهبتُ إلى اليمن لإحضار حناء تُحبينها، كُنت أشعر بكِ طيلة وقتي، بقيتِ مُذ ماتَ أبوكِ مع العوجاء وحيدة، حتى إخوانك الأربعة تركوكِ، لم أعلم لِمَ أرسلهم أبي إلى البتراء مُجددًا، ذهبوا يوم كنتِ تتعلمين المشي، وجاءوا فوجدوا الخُطاب أمام بابك، ثم تركوكِ مُجددًا.

***

لا أستطيع إكمال الحكاية الآن، الآن فقط بدأت حكايتكما، لا، لا، بل بدأت مأساتكما؛ أجأ وسلمى.

أتذكر يوم التقيتما للمرة الأولى، أجأ يُمسك السيف ويربط على رأسه عُصابةً حمراء من بعد وفاة أمه، وأنتِ تنظرين من نافذة غرفتك إليَّ وتستمعين إلى صوتي وأنا أعلمه المُبارزة، لا أنسى عينيك يومها؛ لمعتا كأنهما خرجتا من صدفة حبيسة، تبسمتِ، صاح طاووسُ غرفتك، وكدتُ أسمع قلبك. أتدرين يا سلمى؟ مررت مع رياح على كل أنواع النساء، سمعتُ عن كل قصص الحُب، ولم أرَ امرأة مثلك، ولم أصدق قصة غيرك، كيف لا أراكِ أجمل نساء الدنيا وقد كبرتِ بين يديَّ؟ أتذكر بكاءك يوم زواجي، قُلتِ: «لا تنسَني يا عم».

كنتُ بنفس القصر وخِفتِ أن أنساكِ، كان خوفك في محله، لكن الحظ أبدلكِ أجأ. أحبَبْتُه لأنكِ أحببتِه، قبل أن أكون مُعلمه.

***

فرحتُ يوم رأيتُ اسمكِ بأبياتِ شعرٍ كتبها على جدار غرفته، وخبأها بحريرٍ أحمر، كُنت قد جئتُك به من الحيرة، كُنت رسول الحُب بعدها، بل وكتبت أول أبياتِ شعرٍ أهداكِ إياها. قُلتِ لي يومها: «رأيتُ أبي في المنام يبكي، وبصدره سيفُ جدي الذي سمعته يضحك من خلفي، لكن أجأ جاء وقتله، أجأ قتل جدي يا عمي».

سألتك:

- وأنا؟

- بقيت جوارنا حتى اختفيت.

أنتم الذين ذهبتم يا سلمى.

***

صرنا ثلاثةً عن يمين أبي الذي تركه الأسود، أنا ورباح وأجأ. لا نفترق أبدًا، نذهب بالهدايا إلى جذيمة الأبرش في الحيرة، ونعودُ بإبلٍ تكفي أبي والأسود وهدايا التُّبَّع حسان، ومن بعدهم الناس.

مرت السنون على هذي الحال، وسلمى ترفضُ كل من يتقدم لخطبتها، ابن التُّبَّع، وعمرو بن عدي ولي عهد الحيرة، وحتى ملك البتراء، كانت تقف أمام أبي ولا تقول شيئًا غير: «لن أترك اليمامة». يكاد أبي يُجن، فلا يقول لها غير: «الثريا أقرب إلى الدبران منهم إليكِ».

فتنظر إلى أجأ وتبكي وتعود إلى غرفتها. لم أر أجأ مهمومًا إلا لهمها، أجأ الذي صار نائب رباح على الجند، لا يخاف الحرب ويخاف حزنها.

***

ذات يوم، سمعتُ بكاءً بقلب الليل من البهو، أشعلتُ مصباحي فإذا بأجأ جاثيًا أمام الكُرسي ناظرًا إلى غرفتكِ، وفي يومٍ آخر عُدتِ من عين العروس تبكين، سألتُ العوجاء عن سبب بكائكِ فقالت: «لما رأت العروس خارجةً من الماء بكت وهرولت عائدة».

حاولتُ أن أجد حلًّا، دخلتُ على أبي غرفته لأول مرة بعد يومٍ طويل من نظره المظالم، وقُلت بنفاد صبر: «ألا تستطيع رحمةَ قلب حفيدتك؟».

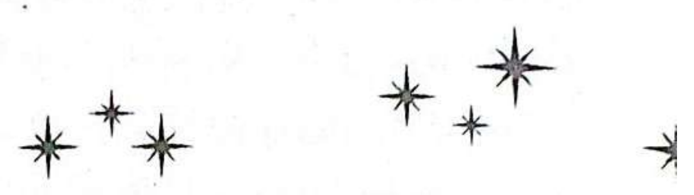
ابتسم وقال: «أُخرج وأغلق الباب! من يضمن عدم هجوم التُّبَّع علينا مرة أخرى يا غبي؟ من يحمينا من غدر ملك الحيرة؟». خرجتُ وذهبتُ إلى رباح، رباح الذي صار يشرب الخمر أكثر من وقته بين الجُند، حتى زهدت عثراته، وزهدت أجأ. لكنكِ يا سلمى من يهتم لكِ من؟

كأن القدر سمعني؛ فتبدل الحال في اليوم التالي إذ دخل رسولٌ من الأسود على أبي مستقيمًا ولم يركع، فعدل أبي من جلسته.

«جديسٌ جائعة، نَقُصَ المال والطعام، وجنودك لا تُبقي ولا تذر، ليس على ألسنتهم غير الخراج، إن قُلنا لا ضربونا، ونحنُ لا نملك ما يسد الرمق. إن كان أخذك للفقراء فنحن هم، وإن كان أخذك لنفسك فاحذر، لا يستمر العُمر، إن كان يطول أو يَقصر». ثم خرج الرسول في غير تحية.

***

وقف أبي وصاح بصوتٍ جعل كل من في القصر يتحرك، وأمر بإحضار قادة الجُند، رأيتُ أبي يومها كمنحوتٍ من حجر، حتى السياسة تركها في ذلك اليوم، رأيتُ كل شيءٍ يندفع، أبي والقادة، السيوف وعرباتُ النبال، الخيول وريح الصحراء، حتى أنا، وقفت جواره بينما يُعلن الحرب على جديس، بعد أن طرد كل جنودهم، وأصدر أمرًا بمنع العطايا والتوقف عن نظر مظالمهم نهائيًّا. تبدل الحال فجأة، اليمامة التي وقفت بعين التُّبَّع حسان، صارت مُنقسمة، آهٍ على الزمان.



قال المُفدَّى بن عمليق الطسمي:

لم أرضَ بإعلان أبي الحرب، ولم يرض رباح لكنه لم يُعلن ذلك، وأجأ سألني ورباح سؤالًا واحدًا: «أتعرفان أين أجد خالتي بأرض جديس؟».

كان الجو مشحونًا لا يتحمل سؤالًا كهذا، لو سمعه أبي لأعدمه أمام كل الجنود المستعدين للحرب، رأيت في عينَيْ أجأ حيرته، أخالته تكفي لينقلب على عمليق؟

أمسكه رباح من كتفه وقال: «أنت نائبي إن نسيت. ليست الحرب لعبة، سنهجم عليهم ونُفنيهم، وستصير نساؤهم سبايانا».

***

رحل رباح ليبدأ بتجهيز الجند، وبقيتُ وأجأ طوال الليل نُدبر كيف الخروج من الأمر، وأردنا أخذ رأي سلمى، سمعنا بكاءها قبل دق باب غرفتها، لم أسألها عن بكائها ولا عن عدم نظرها إلى أجأ، سألناها عن الحرب، لم أتخيل يومًا أن يكون لسلمى رأي في الحرب، الأمر يُشبه أن تسأل اللؤلؤ عن رأيه في قطف وردة، قالت سلمى: «لك خالةٌ هناك يا أجأ، ولك أهلٌ خلفها، إن تركتها فستترك كل أحد».

حتى أجأ أصابه الاندفاع، وقت الجنون الكُل مصاب، أقل الخسائر حينها هي أعظم المكاسب. الجنون هو الشيطان والشيطان هو الجنون.

خرج أجأ دون أن يُفكر، وخرجت خلفه حاملًا شعلة، وركبنا فرسينا نحو جُديس.

***

كانت السماء فوق الأرض بيننا وبين جديس صامتةً صمتًا مُخيفًا، هو نفس الصمت الذي يحيطني الآن إلا من همس أجأ وسلمى.

مررنا على عين العروس واشتدت بنا الريحُ حتى انطفأت الشعلة بفعل الريح هناك، فاختبأنا حتى استطعنا إشعالها مُجددًا، وما إن سرنا مئةَ قدمٍ بعدها حتى وجدنا خمسَة فُرسانٍ شاهري سيوفهم يحيطوننا، لم يتركونا نتحدث، وسرنا معهم حتى وصلنا بيتًا مُتهالكًا وسط مصابيح صُفر، دخلناه فإذا بالأسود بن عُفار وجواره امرأة تبرز عيناها الزرقاوان بوضوحٍ وسط ردائها الأسود، ونظر الأسود إلينا طويلًا قبل أن يتكلم.

***

كانت ليلةً طويلة، حاولنا طمأنة الأسود الذي ظننا نتجسس عليهم، كان الخوف باديًا على وجوههم، أثر النار على جلودهم، وتحت أعينهم يقول إنهم لم يناموا لأيام. قُلنا: «لا يمر الفجر إلا وأنتم بغير واديكم، فتأمنوا هجمةَ عمليق، أو إن استطعتم فصدوها».

أقسم أجأ إن أبي في طريقه إليهم، وأقسمت معه، لكن الأسود لم يتخل عن هدوئه، وأمر الفرسان بأن يجمعوا كل شيوخ جديس، وجلسوا أمام البيت حول نارٍ كانت تشبههم وتُشبه البيت، مُتهالكة، كأنها تريد أن تخبو، أو تقول ما لنا وللريح، فلنهادن حتى لا نهلك.

نظرت إلى وجوههم فتعجبت لحالهم، هؤلاء هم شيوخهم! تُرى ما حال فقرائهم؟ طافت أمام عينيَّ حينها كل أركان القصر؛ الكُرسي الذهبي، حُلي سلمى، تاج أبي والأسود، الأحصنة الشامية، الغلال المُخزنة، ورأيتهم بين الطين والرمل، الجوع والأرق، هالني منظرهم حول النار كأنهم يستقون منها شررًا سيقذفونه طسم، أو يحرقون به أنفسهم، بدوا أضعف من أن تبقى النار بغير دواخلهم، تعجبت من نفسي، تعجبت لِمَ لا أساندهم، عمليق أبي، وهم أبناء عمومة، وأخوال أجأ!

***

دعا الأسود أجأ ليجلس جواره، وقال للشيوخ: «تأكدت الأخبار، عند الفجر يهاجمنا عمليق، والأمر ما ترون».

قال رجلٌ: «نقاتله»، وقال آخر: «نرحل إلى وادٍ آخر»، وقال ثالث: «نرسلُ إليه وفدًا يطلب الصلح، فلا طاقة بنا للمقاومة ولا للرحيل».

علت همهماتهم بين رضًا وسخط، واستقروا على الرأي الأخير، وقام الأسود فاختار أحلمهم، وشكرنا ودخل بيته مع من اختار للذهاب إلى عمليق، إلا المرأة زرقاء العينين وقفت تنظر إلى أجأ، قالت:

- عيناك عينا أختي، لا أخطئهما وإن كانتا فوق مسيرةِ يوم، أنت أجأ؟
- أنا هو، وما اسمك؟
- أنا حذام بنت مرة، خالتك.

وأقبلت عليه فاحتضنته، فأجلستنا وحكت له عن أمه لمَّا ذهبت للاحتكام إلى عمليق، وعن حبها له، وكيف لم تتحمل فراقه، فماتت كمدًا، بكى أجأ فبكت، وأخذنا الحديث عنها وحالها، حكت وهي تنظر إلى النجوم، كأنها رأت فيها كل الغائبين عنها؛ زوجها الذي مات تحت رمال قصر سليمان، وأبناءها الأربعة الذين ما زالوا يُزيلون الرمال منتظرين الموت، سألها لِمَ لم تعُد إلى طسم بعد موت زوجها فقالت: «طسمٌ وإن كانوا أهلي، إلا إنهم متجبرين، لا أشعر معهم بأمان، وقد جاءني رباح يوم وفاة زوجي، فطلب مني أن أعود معه، لكني رفضت».

تعجبنا من أمر رباح، ولما سألناها عنه زاد تعجبنا، عرفنا لأول مرةٍ أنه كان يزورها وأختها، بل ويُساعد كثيرًا من الجديسيين، لكن الفجر حلَّ وكان لزامًا أن نعود.

ودعتنا حذام بالدمع، وبقيت على أطراف القبيلة، وطوال الطريق كان أجأ ينظر إلى الخلف ناحيتها، حتى لم نعد نراها.



قال المُفدَّى بن عمليق الطسمي:

لماذا تذكرت كل هذا؟ أسأل الآن، أهو أبي أم عمليق؟ لا أعلم، لكننا عُدنا إليه من جديس، بعد أن برزت الشمس، كانت سلمى بانتظارنا، حكيتُ لها كل ما حدث، كان أجأ وقتها كأنه بعالمٍ آخر، سألتنا، فحكيت لها ما فعلنا، وأجأ لم يزل صامتًا، لم يطل الكلام بيننا حتى وصل وفدُ جديس يتقدمهم الأسود.

***

كان البهو حينها يُشبه البحر حول الغريق، صامتًا رغم الموت، ضيقًا رغم السعة، الكُل أمام أبي راكعٌ لا يهمس، حتى الأسود، لا، لا، الكل أمام عمليق راكعٌ لا يهمس، حتى أصوات الغربان في الخارج، لم أكن من جناتها يعلم الله، لا أحب الحرب، ولا أحب الصمت، ولا أحبُ شيئًا يُقلق سلمى التي نظرت إلينا من الأعلى.

***

قطع عمليق الصمت لما أذن لرجال جديسٍ بالاعتدال، أمسك أبي كل زمام التجبر، كل زمام الملك، كأنه أدرك فجأةً أنه ملك، لم يسمعهم كثيرًا، لم يلتفت إلى ما قالوا، وقال بصوتٍ هادئ: «تخرجون من وادي العارض كله».

حينها كانوا يُشبهون الشجر، تتحمل الريح رغمًا، ريح التجبر التي أحست بها سلمى فنظرت إلى أجأ من نافذتها أن تكلم، فمال أجأ نحو عمليق وقال: «مولاي، جاءوا خاضعين وأنت خير الحالمين».

أكمل عمليق كلامه كأنه لم يسمع أجأ، وقال بنفس تجبره: «تنزلون جميعًا قرية النبي، على أن تُكملوا إزالة الرمال من فوق قصر سليمان بسرعةٍ أكبر».

***

لم ينتظر ردهم، وخرج من المجلس وخلفه أجأ، وأخذوا يتحدثون حديث الغارق، لا يعي ما الفعل غير أنه يغمغم.

سرت حينها خلف عمليق أنا وأجأ، انتظرنا أن نخلو به لنتحدث معه. قال أجأ: «مولاي، هذا أمرٌ شاق غير حالهم السابق».

نظر عمليق إلى أجأ بثقة الصخر وقال: «يا أجأ، الحكم أمره صعب، ولا حل لي غير ذا، يا أجأ، إن ملكت القوة ملكت الأرض وما عليها، وهذا جيشي بقبضتي، عليه رباح الذي ربيته بنفسي، فإن تركته عليهم أبادهم، لكني رحيمٌ فلم أدعهم للموت». قُلت مُتهكمًا: «أنت لا تعي ما تقول، حتى رباح لا تضمن ولاءه الأبدي». ضحك عمليق وقال: «رباح يخونني؟ رباح الذي سأزوجه من سلمى؟».



قال المُفدَّى بن عمليق الطسمي:

تمر الأيام جواري، وتعبر أمامي القوافل، تجف الآبار وتُخسف الجبال. لا الأيام تقف، ولا الإنسان يزهد، لكن الجبال لا تُخسف إلا لأمرٍ جلل.

عشتُ في اليمامة ثلاثين سنة، ظننت أسوارها تحجب الموت، كل الموت. ظننت النجوم تخافها، حتى عمليق ظننته باقيًا إلى الأبد، كل شيءٍ بقبضته، كل شيء. أتذكر يوم رأيت جبلًا يُخسف لأول مرة، لم أتعجب كما تعجبت يوم مات أبي، عمليق كان أقوى عندي من الجبل.

***

قربت حكايتي من النهاية، كل شيءٍ انتهى فجأة، بدأت هذي الفجأة يوم انتهت جديس من إزالة الرمال من فوق قصر النبي سُليمان، رأيتُ أبي واقفًا بقلب البهو ناظرًا إلى وفد جديس وهو يضحك ثم قال: «سأسكن قصر النبي من الغد، وسأعطيكم بعض خراج العارض»، ونظر إلى غرفة سلمى وقال: «وسيكون عُرس رباح وسلمى خلال عشرة أيام».

***

بعدها بيومين حدث أمرٌ عظيم، حتى إن الناس كانوا يتهامسون في الشوارع به، كل الناس رأوا الشموس بنت الأسود وهي تلملم ثيابها وتمسح الدم من فوق فخذيها، كل الناس رأوها وهي تهرول سافرة من عين العروس إلى جديس وشعرها مختلطٌ بالطين، كل الناس سمعوا صراخها الذي وصلنا أمره، عمليق اغتصب الشموس بنت الأسود قبل زفافها بيوم.

***

صار كل شيءٍ يومها أحمر، السماء، وجوه الجُديسيين، وجه عمليق وأجأ ورباح، وجه إخوةِ سلمى الذين جاءوا من البتراء بأمر عمليق ليحضروا العُرس، حتى وجهي، كنت خائفًا، كنت غاضبًا، كنت حزينًا، لكني بقيت طوال الليل أفكر بعد أن مال عليَّ رباح وقال: «طغى عمليق، ولا بد من حد». نظرت إليه بعجب، ظننته أفاق من الخمر لتوه، رباح يُعارض عمليق! سألته عما يرى فضحك، قال سأذهب لدعوة التُّبَّع حسان.

***

كانت ليلةً عصيبة، جاءتني فيها أصواتٌ كثيرة، ضحكات عمليق، صراخ الشموس بنت الأسود، صراخ الجديسيين من الفقر والعار، لن يتركوا عمليق بعد الذي فعله. أأنقلبُ على عمليق؟ أأنقلب على أبي؟ سألت النجوم، رأيت شهابين، ولمع دبراننا فوق لمعانه، شعرتُ أن هناك أمرًا إلهيًا: سِر إلى التُّبَّع. لم أعلم أهو صوتُ السماء حقًا أم صوتُ نفسي، أردت أن أبرر خروجي على أبي، أبي! لم يعد أبي، بل هو عمليق العظيم الساعي إلى قصر النبي، لكن لمن أترك أجأ وسلمى، أأترك أجأ يُحارب وحده، أسيعلم عمليق بغدري؟ آهٍ على كل ذاك الألم.

***

جهزت فرسي قبل الفجر ولحقتُ برباح، كان الطريق من حولنا ضيِّقًا، شعرت بالغدر من كل جوانبه، وصمت رباح طوال الطريق حتى خفتُ أكثر، كُنتُ منساقًا وراء شيءٍ لا أعلمه، وما إن وصلنا قصر التُّبَّع حتى همس لي رباح: «أتُحب أباك؟». لم أُجبه ولم ينتظر إجابة، تقدمنا في القصر المهيب حتى وقفنا أمام أقدام التُّبَّع: «سيدي العظيم، استبد عمليق وثارت عليه نصف اليمامة وجئنا نستنجد بك».

ذهلت أول الأمر، لكني صمتُّ، وافقت، تخليتُ يومها عن أبي، وليت الأمر اقتصر عليه، وافق التُّبَّع على الخروج بجيشه لما رأى موافقتي، ليتني لم أصمت.



قال المُفدّى بن عمليق الطسمي:

خرج جيش التُّبَّع من اليمن حوله هالةٌ من التراب تكاد تُخفيه عن الناظرين، وعندما اقتربنا يومين من اليمامة جاء فارسٌ يقصد رباحًا، حدثه بحديثٍ قصير ورجع مُجددًا، سألته فقال: «الجديسيون قتلوا عمليق كما أخبرتهم».

كان يُشبه حينها شياطين الليل، خفتُ منه حينها للمرة الأولى، خدعني. تذكرت يوم طلبت منه أن يُعلمني السياسة، لم أصِر يومًا سياسيًّا، وتأكدت من ذلك لمَّا ذهب رباح إلى التُّبَّع وقال: «لي أختٌ ترى الجيش من مسيرة يومين، فاجعل جند المقدمة يلبسون الشجر حتى يختلف الأمر عليها إن نظرت ناحيتنا». لم أكن مدفوعًا إلا بصوت رباح، لا صوتَ إلهٍ ولا نفسي، كان صوتُ الشيطان وحده.

***

تقدَّم الجيش وأنا معهم، خفتُ منهم، شعرت باليأس، لم أرد التمرد حتى أفوز بأقل الخسائر، أصبحت أقل الخسائر حينها مكسبًا. لكني لم أحدث رباحًا بعدها قط، كل شيءٍ هو مُسببه، كل شيءٍ أنا سببه.

***

بدت أسوار اليمامة أمامنا واضحة، ورأيتُ خالةَ أجأ فوقها بنفس المكان الذي وقفت فيه صغيرًا مع الملك وأبي، رأيتها تُلوح بذراعيها كأنها فزعة، ومن حولها جُندٌ قليلون بُهتوا من التُّبَّع وجيشه، ورأيت تحتهم رجلًا مُعلقًا ومربوطًا من قدميه وسط دمائه، دققت في وجهه أكثر وسط خيوط الدم، كان أبي. أردت الهروب حينها، لو هربت سيقتلونني، لو أخرجت زفيرًا ضايقهم سيقتلونني.

***

دخل الجيش الكبير اليمامة ولم يستطع الجديسيون مقاومته، بل ولم يستطيعوا غلق أسوار المدينة كأنهم أُنهكوا من قتل الطسميين، رأيتُ الدم في كل مكان؛ الشوارع وأسوار المدينة والآبار، وحتى قصر أبي الذي قتلوه، القصر الذي دخله التُّبَّع ضاحكًا قبل أن يأمر جمع كل الجديسيين ومن بقي من الطسميين خارج الأسوار، وأمر بإحضار خالة أجأ أمامه، وقفتُ جوارها أطمئنها فأخبرتني بأن أجأ قد هرب مع سلمى قبل هجوم الجديسيين على طسم، هربا ناحية الحيرة، وخرج خلفهما إخوة سلمى الأربعة ليقتلوها، وخرج الأسود بعد الهجوم وراءهم مع بعض رجاله ليقتلهم كلهم.

***

أمرنا التُّبَّع أن نصمت، وقام من فوق كُرسي أبي ليقف أمام خالة أجأ بالضبط، ثم ضحك ومد أصابعه إلى مقلتيها حتى فقأ عينيها الزرقاوين.

لم أتحمل، خارت قواي هنا، لم أجد سبيلًا غير الهرب، لا، لا، لم أجد سبيلًا غير أن أرمي بنفسي من فوق جبل، كان أجأ وسلمى هما أملي الوحيد.

***

جهزت فرسي للهرب، بعد أن جُمع الناس خارج الأسوار، وما إن ركبتُ فرسي واستعددت للانطلاق حتى سمعت التُّبَّع يقول لجنوده: «اقتلوهم جميعًا جميعًا، وابدؤوا برباح والمفدَّى». هربتُ ولم أنظر إلى الخلف ولو مرة، كنت أضرب فرسي حتى رأيتُ آثار دمٍ على العصا، رأيتُ كل الطريق دمًا، وداخلي دم، رائحةُ الرمال دم، الجبال دم. لم أتوقف إلا بعد أن ضعف الفرس، رأيته يبكي، بكيت، لم أتوقف عن البكاء منذ يومها، البكاء هو أملي الوحيد في التطهر.

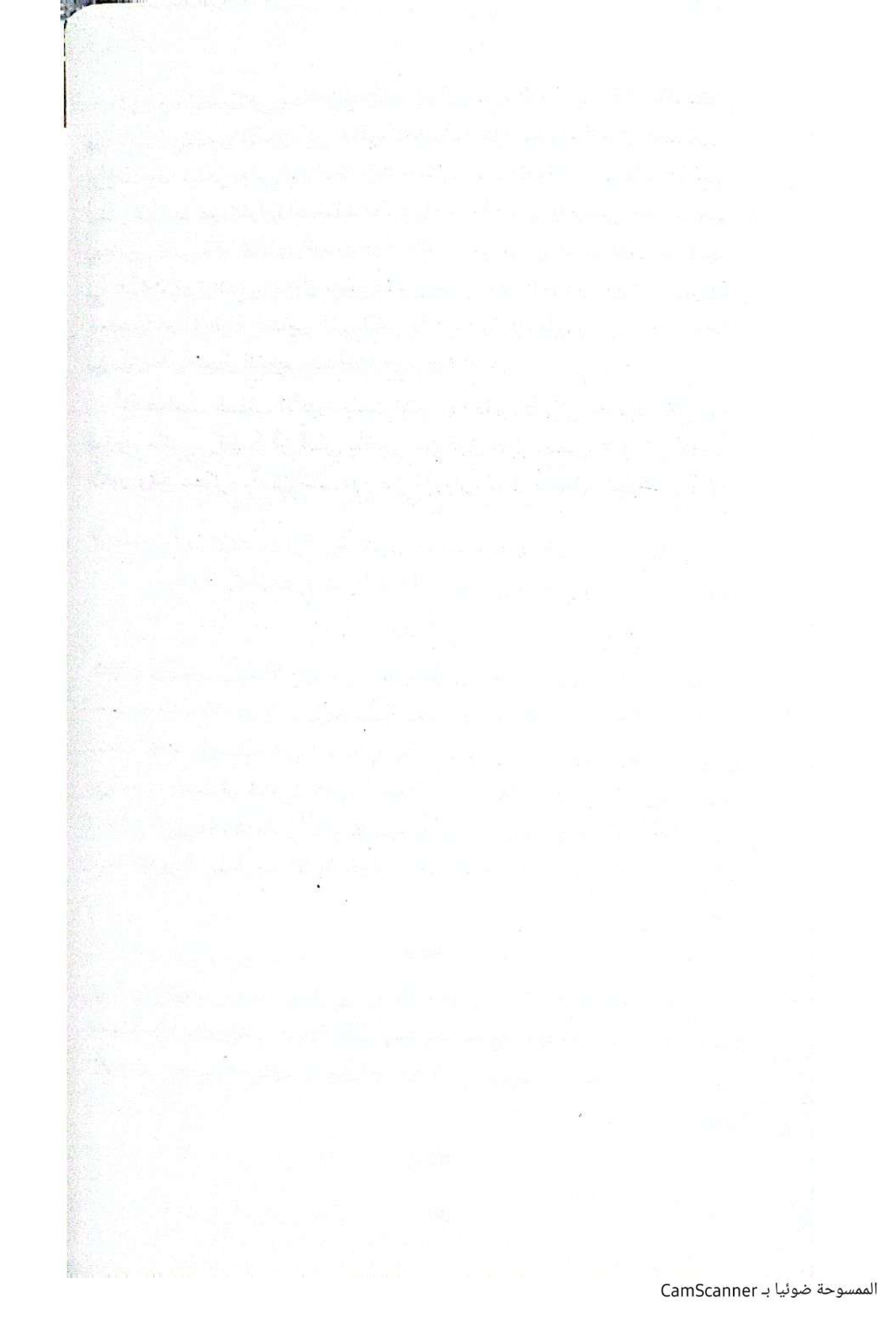
***

في أثناء وقوفي بالطريق إلى الحيرة؛ مر بي إخوة سلمى راجعين إلى اليمامة، لم يعرفوا ما حدث ولم أخبرهم حين رأيت الدم على سيوفهم، سألتهم عنها فقالوا: «ابحث عنها فوق جبلي البئر». خفتُ ولم أنتظر، فتوجهت ناحية الجبلين.

***

ما إن وصلت مكاني هذا حتى رأيت رجال طيء الساكنين الآن هنا، عند هذه البئر، يقتلون الأسود بن عفار، فاختبأتُ ثم صعدت الجبل الشرقي، فرأيتُ فوقه سلمى وهي مصلوبة، والدم ينزف من قلبها، هززت كتفيها فلم تُجب، فحملت من التراب المختلط بالدم وأخذت أضرب به رأسي، تهاوت كل أحلامي، حتى حُلم التطهر آيست منه. ظللت على حالي هذا يومين، ودفنتها في الثالث فوق نفس الجبل حتى تُشرق من عندها الشمس، ودفنت حولها خمسين غرابًا طيلة السنين التي قضيتها هنا فوق الجبل، ودفنت أجأ بعدها بيومين على الجبل الغربي، ودفنت حوله مئة غراب.

أنا صاحب العذاب الأكبر، بقيتُ أكثر مما بقوا، لأحكي قصتهما كل يومٍ فيزيد عذابي، رفضتُ أن أُلقي بنفسي من فوق جبل سلمى، لا بد أن أتعذب لأكبر وقتٍ ممكن، وأدفن أكبر قدرٍ من الغربان، لماذا تُخسف الجبال فجأة؟!





الفئران لا تأكل الفواكه



قال آخر فئران مأرب:

الفئران الفئران، كلما أرادوا براءةً من الذنب، قالوا الفئران.

حكايتنا بعيدة، موغلةٌ في القدم مُنذ بُني هذا السد المحفور من صخور الأرض الخامسة، قال لنا أجدادنا: «بناه الملك شهر يهرعش الذي كانت الأرض تهتز تحت قدميه، وقف أمامه يومها وقال: «منيعٌ يا سدي العظيم حتى يهاب المار، راوٍ يا سدي حتى حدود ظفار»، وأمر الزُراع أن يشرعوا في الحرث عن اليمين والشمال، فزُرعت جنتان عظيمتان، كانتا تُخرجان كل حصاد ما يكفينا من فاكهةٍ وبذورٍ، وعشنا في عهده مرتاحين لا نطرق بيوت البشر».

***

رحل الأجداد وتغير الزمانُ عن أيام شهر يهرعش، فقد بانت في السد الشقوق من أعلاه إلى أسفله، لا يرى تلك الشقوق من هم خارج السد، نحن نراها، بل ونسكنها، كُنا أول الأمر نُدخل بها أنوفنا المستديرة فتعلق، الآن نسكن بأجسادنا كلها في تلك الشقوق، لكنها كلما اتسعت كان الملوك يُرسلون من يُصلحها، فتعود الشقوق فنُدخل بها أنوفنا بصعوبة، لكنها ترجع فتتسع، ويعود المُصلحون، ولذا بقي السد على أكف من طين، بين اتساع الشقوق وضيقها.

***

مرت السنون، وغاب عنا مُصلحو السد طويلًا حتى اتسعت الشقوق جدًا، فصرنا نخاف عليها من أنوفنا الدائرية ومن فيضان الصيف ورعد الشتاء، وفي يومٍ من أيام الفيضان فزعنا من نومنا وسط النهار على صوتٍ عالٍ يُشبه سنابك جيش ظفار. افترقت كل الفئران على أثره بين الشقوق المبتلة وخارج

السد الذي أغرقته مياه الأمطار العظيمة، كان الصوت صوت رعد السماء الذي لم نسمع قبل مثله، كأن إله السماء غضب علينا أو كأنها نهاية الدنيا.

***

لم نستطع العودة إلى داخل السد بعد أن تباعدت الشقوق وامتلأ جوف السد بالماء وطافت على وجه المياه أجساد إخوتنا الذين بقوا في الشقوق المبتلة.

هربنا وسط الحدائق نصيح بنميمنا وسط الناس لعلَّهم يُدركون الخطر ولا أحد يلتفت، بل وأمر الملك بنشر القطط في الشوارع كي تأكلنا بعد أن قال الملك أول الأمر: «إن تركتم الفئران سيأكلون السد».

صرنا نختبئ في بيوت البشر فنسمعهم يتحدثون عن الملك والسد: «إن السد محروسٌ من كل الآلهة». «صوت الرعد الغريب ليس من السماء، إنما الأعداء قد اجتمعوا ونفخوا أبواقهم في صوتٍ واحد كي يخيفونا، السماء ليست غاضبة ولا شيء». «الفئران المنتشرة ليست فئرانًا، إنما طينٌ أسود مسحور، نشرته الحبشة على شاكلتهم كي ينذرونا بأنهم قادمون، وهيهات يستطيعون مجابهتنا». وظلوا على هذا الكلام حتى رأينا الملك ذاهبًا ناحية السد بنفسه.

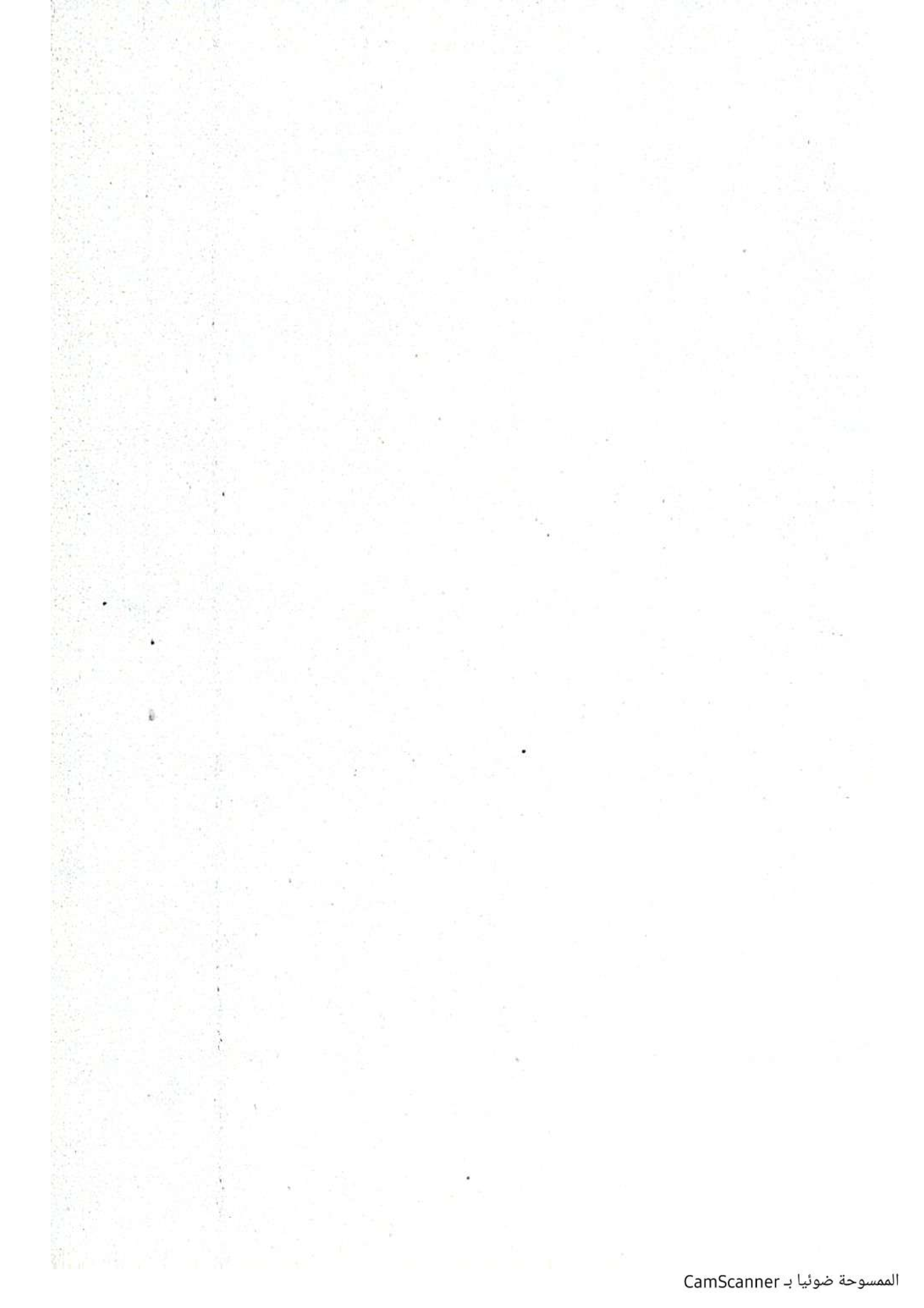
***

عاد الملك ووقف بين الناس وقال: «يا أهل مأرب، تشقق السد ولا أرى بعد شقوقه إصلاحًا».

ضحك الناس ورموه بفواكههم: «أتجف مأرب يا ملك السوء؟!». وعادوا إلى كلامهم القديم وزادوا: «قيل إن الملك شهر يهرعش قد جعل في حجارة السد يوم بناه قوة ألف جبل، ويأتي هذا الأحمق ويقول فئران وانهدام، لعنه الله هو وقططه».

***

وانتهت الحكاية، انتهت حكايتنا نحن فئران مأرب، بعد أن رأينا الملك وسط الليل هاربًا نحو الشمال، قبل أن ينهدم السد، وتطفو أجسادنا فوقه.





الوَحَل والنجوم



في إحدى الليالي نظر إلينا الأستاذ عبد الملك جميعًا، كل واحدٍ في عينيه، قبل أن يحكي حكاية نوق إياد العشرة عن رحلتهم إلى النفق المؤدي إلى كنوز الكعبة، ثم ابتسم وقال لنا: «يا فئران، مهما أوتيتم من قوة، فلا تزالون فئرانًا»، ثم بدأ يحكي الحكاية.

***

قالت روح الناقةِ الأولى المذبوحة:

انتظرنا إيادًا أمام النفق، تساءلنا، أسيتركنا بعد أن يخرج؟ أم يحمل علينا الدر والياقوت الذي وعده به هذا الشيخ؟

ربما تسأل، من إياد ومن الشيخ؟ والحكاية طويلة وعجيبة.

***

نحن نوق إياد بن نزار بن معد العشرة، ورثْنا من جملة ما ورثه من أبيه نزار، كُنت أشد نوق أبيه، اجتلبني من الحبشة مع جاريته السوداء الشمطاء التي أعطاها إلى إياد يوم أوصى بماله لأبنائه، وهو يئن فوق سرير مرضه، قال أبوه وقد حاول قبض يديه وضربه في بطنه: «يا إياد، تلك الناقة لك وكل أسود يشبهها، واصبر، سيأتيك الجد الملك، سيُحييك ملك»، فكُنت من نصيبه أنا وكثيرٌ من النوق والغنم الأسود، الذي لم يُوجد في بلاد العرب مثله.

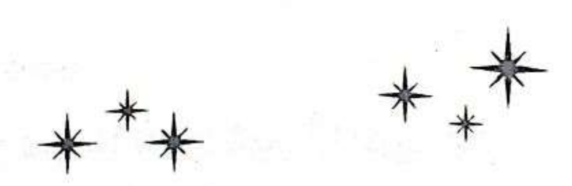
***

مسكينٌ إياد، كان الأقل حظًا في ميراث أبيه، حتى إنه كان يلعن أباه وأجداده في كل مرة يجلس جوارنا، وفي كل مرة يشد بخطامنا للعمل، وفي كل مرة كان الماء ينفد، وفي كل وادٍ يسمع صفير الحيات حوله، وفي كل سيلٍ

أخذ منا ومن ماله، عاش شقيًّا، كان يكرينا للحجيج والتجار ويعيش على كرانا، تلف كل ماله حتى باع جاريته السوداء ولم يبق من ماله الأسود إلا أنا، ونوق الرحلة التسع، لكنه لم ينس قط قول أبيه على سرير الموت: «سيأتيك الجد الملك، سيُحييك ملك». كان يغنيها جوارنا مع جُل حكايته، ويصرخ في السماء: «ماذا تقصد يا أبي، أنت ترى شقائي، أيُّ جد وأيُّ ملك؟ أجبني، أنت تسمعني لا محالة».

***

كان هذا قبل أن تتغير دنياه، يوم ظهر هذا الشيخ في ذلك اليوم الذي حدث فيه لأول مرة بحياتي ولم أستطع حمل قشة، وهو نفس اليوم الذي رحلت فيه حبيبة إياد مع أهلها.



قالت الناقة الثانية:

مسكينٌ إياد، لم ينس حبيبته طوال رحلته المتعبة مع ذلك الشيخ، ما أصعب هذي الرحلة وأتعس هذا المسير، كل التجار والحجيج يختارون الطريق المعروف خوف الهلاك، وهذا الشيخ اختار طريقه بنفسه، عجوزٌ ظهر من اللاشيء، مثل الفتاة الفُراتية التي أحبها إياد.

***

بدأت هذي الرحلة إذ جاء هذا الرجل؛ شيخٌ عظيم، كأنه جبل، غير أنه محنيٌّ بفعل العمر الذي بيَّض لحيته وطوَّلها حتى لتصل إلى ركبتيه، كان يستند إلى عصا حجرية لم أُضرب بمثلها، وتهيم إحدى يديه أمامه كأنه يبحث عن شيءٍ ما، أو كأن جنًّا يسحبه، تظنه أعمى، ولم أجد في مرافقته ما يوحي بذلك، فهو ينظر إلى المكان ويصفه كأنه يراه كأنه يحلم به أو يصفه له الجن.

***

وقف هذا الشيخ وسط الناس والنوق وقال: «من يكريني نوقه وله أجره دُرًّا وياقوتًا، يحمله فوق نوقٍ سود، يشح الماء ولا تموت؟». لم يُجبه أحد، لم يلتفت البعض إليه وتهامس آخرون: «مجنونٌ هذا!». «لا يعرفه أحد». «در وياقوت! اذهب لتموت في حيِّك يا عجوز».

وإياد كان جالسًا يبكي، رحلت حبيبته وبقي معنا وحيدًا كما كان، رحلت مع أهلها إلى الفرات وبقي هو عطشان، كان يكرينا إلى أهلها مُدة إقامتهم، يراقبها من خلف هودجها، يحمل لها الماء في جعبته، يهمس في أذني أن أنيخي بهدوءٍ كي لا تجزع، يضع ركبته كي تستند إليه نزولًا وأو أن تطلع، حتى نظرت إليه في يومٍ مُشمس فلم يفق من نظرتها إلا وقد ألجمه العرق وظل يمسح عينيه فضحكت، لكنها رحلت، رغم قوله الشعر فيها، رحلت، رغم

ردها الشعر، رحلت، وبقي إياد جوارنا، ليس له في الدنيا غيرنا، فلا هو يملك رفاهية الحب ولا تركنا، جلس يمسح عرقه، وينتظر من يكرينا ليستطيع شراء التمر والملح، طعامه الوحيد.

***

استفاق إياد لنداء الشيخ، ومسح دموعه: «أنا يا شيخ، أنا أكريك نوقي».

وضع الشيخ يده على كتف إياد فمالت كأن حملًا وقع فوقها، وقال:

- كم عدد نوقك؟
- عشرة.
- وكم بيننا وبين مكة؟
- أربع آبار.
- وإن سرنا من جبل المطابخ؟
- بئرٌ واحدة.



قالت الناقة الثالثة:

كُنت الناقة المُختارة لحمل حبيبته، كُنت أسمعها تُغني شِعره، كانت تُبيِّن الجفاء حتى إن أسدلت ستار هودجها كادت تلكزني من فرحها بقوله ونظراته، حتى خرَّت ذات يومٍ وباحت، لكني لم أجزع منها لهمس إياد في أذني ألَّا أجزع.

لم يدرِ أهلها بما يجري، غير أن إيادًا يكري نوقه بسعرٍ أقل من غيره، يرضى بأي شيءٍ وأقل شيء، ولذا فلباسه مقطوع فوق صدره كأنه طُعن بسهم، وحاكت له حبيبته قميصًا قبل أن يُلاحظ قومها وترحل معهم.

***

جهزنا إياد للرحلة، رتَّبنا من أقوانا لأضعفنا، وتمَّم على الأخطمة وملأ قِرب الماء والطعام، وأناخ الناقة الأولى للشيخ الذي ركبها بصعوبة، لم تقم الناقة في أول الأمر، بأول لكزة، لم تقم إلا حين مسح الشيخ على سنامها ثم قام إياد فضربها، ومشت بطيئة كأنها تحمل فوقها ألف حمل.

***

لم يتحدثا في الليلة الأولى، كان إياد ينظر إلى النجوم التي بدأت في الظهور تدريجيًّا مع كل جبلٍ يظهر في الأفق لا بد من تخطيه، لِمَ وافق على هذي الرحلة؟ لا أظنه يعلم، كان الموت مُحيطًا به من كل جانب، لكنه كان يضع يده على صدر قميصه، ويُحدث السماء كأنها تسمعه، فيلعن أباه وأجداده، ويسأل: «ماذا تقصد يا أبي؟ أنت ترى شقائي، أي جد وأي ملك؟ أجبني، أنت تسمعني لا محالة».

التفت إليه الشيخ ذات مرة، كأنه سمعه، وأوقف الناقة الأولى وقال:

- أنت إياد بن نزار؟

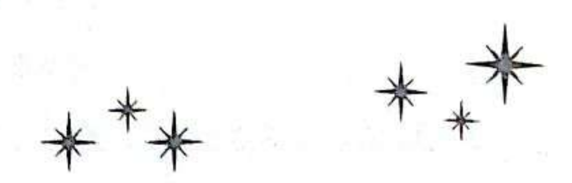
- نعم، أنا هو، كيف عرفت؟

- ظهر جبل المطابخ، والآن أوقن من العودة، وأنا أعلم أن أحد أبناء نزار بن معد هو من سيوصلني، فأنت هو لا محالة.

- من أنت يا شيخ؟

- أنا الحارث بن مضاض الجرهمي، ملك مكة التائه بعد أن عصيت.

فرح إياد ربما، لا أعلم، لكنه حتمًا تذكر كلمات أبيه عن الجد الملك. رأيته ينظر حوله كأنه يتعجب، كيف يمكنه النجاة وسط هذي الطريق؟ أي درٍّ وياقوت يمكن أن يوجد هنا؟ ولذا نظر إلى جبل المطابخ أمامه متعجبًا، ثم نظر إلى الشيخ ساخرًا وقال: «ولماذا جبل المطابخ يا شيخ؟ أفيه درٌّ وياقوت؟».



قالت الناقة الرابعة:

من يحمي الإنسان من الشقاء غير نفسه؟ من يصنع السعادة غير قلب الإنسان له؟ منه وإليه، من يقدر على أن يُبدل الأقدار؟ كيف لجبلٍ أن يصدك وتحزن لأنك لا تملك القوة، كيف؟!

كان إياد مشغولًا بكيفية عبور جبل المطابخ، وبدا الحارثُ هائمًا في ملكوت الله حوله، وما زال مادًا يده أمامه حتى أيقنت أن جنًا يأخذ بها، تراه يتلفت في كل مكان ببطءٍ كأنه يرى أمامه أحداثًا تقع، أشخاصًا يتحركون، كان يتفاعل معهم أحيانًا بأن يُصفق، أو يقول «انظر يا إياد» أو يلكز الناقة لتُسرع هربًا، وإياد ينظر إليه بسخرية ويهز رأسه، أظنه كان يريد أن يقول للشيخ «انتظر لنعبر الجبل ثم افعل ما تشاء».

***

كان الطريق حول الجبل صعبًا حقًا، بدأنا فيه مع الفجر، ولم نستطع إكمال عبوره إلا عند الغروب، حتى هدَّ التعب إيادًا فاستلقى على ظهره يستقبل الليل.

ابتسم الشيخ ناظرًا إلى السماء وقال: «أتعرف لِمَ سموه جبل المطابخ؟».

حينها بدأت النجوم باللمعان، ووقع الشيخُ منكفئًا على وجهه بعد أن حادت عنه الناقة الأولى، خرَّت على الأرض كأن مسًا أصابها، ولم تقم بعد ألف ضربةٍ بالعصا ومسحتين على سنامها، ولم يجد إياد غير أن يُغير الناقة، ويذبحا الناقة التي حادت.

جلسا تحت الليل وأعد إياد الشواء حتى طاب اللحم وجلسا يأكلان الطعام، كان الشيخ يستند إلى عصاه الواقفة كأنه لا يريد أن يضعها على الأرض، فيمد يده ويأكل، ثم يُمسك العصا، ويمد يده الأخرى ويأكل، ثم يُمسك العصا،

وهكذا أخذ في المُبادلة بين يديه حتى انتهى وتسلق عصاه ووقف. لم يتكلم كلمةً وقت طعامه، رغم سؤال إياد المتكرر ليخبره عن حكاية الجبل، فنظر الشيخ خلفه، وقال لإياد: «انظر فوق الجبل».

***

نظرنا معه فإذا بالنجوم قد تركت أماكنها كأنها ترقص، وتشكلت فريقين عن اليمين والشمال لتُشكل بشرًا، دُهش إياد مما رأى حتى فغر فاه. كان الشيخ يُشير إلى النجوم فتتشكل حسب ما يريد. قال الشيخ: «أتعرف متى حارب العرب بني إسرائيل أول مرة؟»، هز إياد رأسه نفيًا، ورقصت النجوم حتى رسمت عن يمين الجبل رجلًا ضخمًا وجواره جيشٌ أضخم ممتدٌ بين قمة الجبل والأفق عن اليمين، أشار الشيخ وقال: «هذا أخي عمرو الذي قُتل غدرًا، ملك العرب، وهذا جيش العرب من نُصرة حمير وجرهم»، وتشكلت النجوم عن يسار الجبل فرسمت رجلين، أحدهما نحيلٌ طويل، ذو أنفٍ مُدبب كالسكين، وجواره رجلٌ قصير دميم، عيناه واسعتان وذراعاه ضخمتان كالصخر، وخلفه جيشٌ أكبر من جيش العرب، أشار إليهما الشيخ وقال: «هذا النحيلُ فاران ملك أمر بني إسرائيل الغادر الذي سرق تاج الكعبة، وهذا القصير هو شنيف قائد جيشهم».

***

نظر إياد إلى النجوم كأنه في حلمٍ عجيب، ومد يده إلى السماء كأنه سيمسك النجوم بيديه، وقال للشيخ: «وكيف قُتل أخوك الملك؟ أغدر به بنو إسرائيل؟». ابتسم الشيخ وقال:

- متى نصل إلى ربوة فاضحة؟
- تبعد قليل مسير.
- أتدرى لِمَ سُميت بذلك؟
- فأخبرني.



قالت الناقة الخامسة:

لن أنسى عينَيْ الشيخ مُذ رأيته أول مرة، عيناه تُشبهاننا، مُوغلتان في قدمٍ لا يعرفه غيره، رموشه تتداخل إن أغمض عينيه، كأنه يُخبئهما من الناظرين، لم أرَ شيخًا مثله، ولم أحمل مثله.

سار الشيخ وإياد حتى وصلا إلى ربوة فاضحة، والنجوم عن يمين الجبل ويساره كما هي، كأنها تنتظر إشارة من الشيخ لتتحرك، وإياد بقي على نظره إلى النجوم حتى يكمل الشيخ حكايته.

***

توقفا جوار الربوة، ونظر الشيخ إلى النجوم على شكل أخيه الملك وقال: «آهٍ على أيام المُلك يا عمرو، المُلك لا يعرف الرحمة، المُلك لا يعرف إلا الغَلَبة، وإن جاءت بالغدر والدم، الدم الذي لم تحبه يا أخي، لم تحبه. أتريد يا إياد أن تعرف لما سموها ربوة فاضحة؟».

***

نظر إياد إلى النجوم فإذا بها تتحرك، رأينا نجوم شنيف تتقدم أمام جيش بني إسرائيل، ورأينا نجوم الملك عمرو واقفةً بالمنتصف وشفتاه تتحركان، قال الشيخ:

- أخي لم يخرج بجيشه إلا ليرد تاج الكعبة الذي سرقته بنو إسرائيل، ولولاه لما تحرك قيد أُنملة، ولذا فقد تقدم أمام الجيش غامدًا سيفه، وقال لشنيف هذا: «إن شئت تعاركت أنا وأنت، ومن انتصر، انتصر قومه، ونحقن دماءهم».

رأينا شفتَي فاران تتحركان، وافق فاران وتقدم شنيف لمبارزة أخي عمرو، فضحه أخي فوق هذي الربوة، ولذا سُميت فاضحة، ولم يُرسل فاران تاج الكعبة. أتعلم أين تلة فاران؟

- هي هناك.
- غضب أخي عمرو، صف الجيش وخطب فيه: «إن لم تردوا تاج الكعبة سقط شرف العرب، إن تركتموهم يخلفون وعدهم سيخلفونه كل وقت، لا بد من التاج».

***

ضرب جيش العرب أقدامهم في الأرض من الغضب، ثار التراب كاللهب، وخاف جيش بني إسرائيل حتى تقدم فاران بنفسه، وعرض على أخي المبارزة، تقدم أخي أمام هذي التلة، صعدا فوقها وتبارزا، وقُتل فاران هو الآخر، لم يسلمونا التاج أيضًا، غُدار، طاردناهم، طاردنا بني إسرائيل حتى بيت المقدس، حتى أخذنا التاج بأيدينا لا بأيديهم.

وظل الشيخ يُنشد طوال الطريق مُتذكرًا أخاه: «قتلت شنيفًا ثم فاران بعده، وكان على الآيات غير أمين».

***

قال إياد: «الحمد لله أن انتصر أخوك في المعركة».

قام الشيخ من مكانه بسرعة وأشار إلى النجوم على شكل أخيه وقال بصوتٍ تردد في كل الوديان حتى أفزعنا: «لكنهم قتلوه، قتلوه يا إياد»، سأل إياد ببلاهة: «كيف قتلوه وقد انتصر؟». سكت الشيخ وركب الناقة، وقال لإياد: «لا تتكلم وسر بي دون السؤال عن شيء».



قالت الناقة السادسة:

كُلما تحدثُ الحارثُ الجرهمي عن الغدر احمرَّ وجهه حتى كاد أن يكسر يديه في ضرب الناقة الثانية، كأن كلامه القليل يتحول لقوةٍ بيده تضربنا، ولذا حادت عنه الناقة الثانية، والثالثة، والرابعة، والخامسة، لكن ومع اقتراب نجوم مكة، نظر إلى إياد بسكونٍ وقال: «أتريد معرفة مقتل أخي؟ ومن كمثل أخي، لا يُقتل مثله إلا غدرًا، أرسلوا إليه امرأة من أحفاد يوسف النبي، أعجبته حتى فُتن بها وتزوجها، لكنها غدرت به وقتلته قبل أن تهرب، ولا يغفر لها إلا أنها أنجبت ولدًا، كان آخر من بقي من أثر أخي عمرو، وكان ابنه يشبهه، وأسميناه على اسم أبينا مضاض».

***

مضاض، آهٍ يا مضاض، أنا السبب يا بنُي فيما أصابك، أنا من فرقت بين إساف ونائلة، فعاقبني الله فيك بأن فرقك عن ميا، لا يرى الإنسان هول المصاب إلا إن كان المصاب في الأحباب».

انتبه إياد كمن لدغته أفعى، ونظر إلى السماء يبحث فيها عن وجه حبيبته، وقال:

- وما حكاية مضاض وميا؟
- ليس في الوجود من شقائهما، ليس في الوجود من أحبة كمثلهما، ليس في الوجود من أحب بصدقٍ حتى ذهبت روحه إلا هما.

***

أثقل الهم عينَيْ الحارث حينها، حتى لم أستطع حمله، فوقع على وجهه للمرة السادسة، لكن أنفه انكسر هذي المرة إذ وقع على جحرٍ اختبأت خلفه أفعى، كادت تصيبه إلا أنه قال: «أنا الحارثُ يا حارسة».

فخنست الأفعى بجحرها مجددًا، وقام فضغط أنفه حتى توقف الدم وعدل من موضع أنفه، ثم خلع رداءه فبانت كتفاه، وافترش الأرض ونام، وإياد ينظر إليه وإلى جحر الأفعى التي خنست متعجبًا، لكنه قال بهدوء: «احكني حكاية مضاض وميا».



قالت الناقةُ السابعة:

الناس في الحُب كالأفراس؛ يملؤون الدنيا صهيلًا، وتغرس أقدامهم في كل رملٍ ناعم، ولا يقوى على السير غير خُفنا العريض، وإن كُنا أضعف.

لم أتخيل أن أسمع قصةً في الحُب كقصة مضاض وميا، كان إياد يسمعها من الحارث واضعًا يده على صدر قميصه وناظرًا إلى نجمةٍ في السماء يهمس إليها.

قال الحارث وهو مستلقٍ على الأرض، والهواء يضرب كتفيه العاريتين: «كانت ميا تُشبه أجمل نجوم السماء، وكان مضاض أجمل الفتيان، حتى النساء كُن يغرن منه، لكنه وعى دنياه بأبٍ مقتول، وأمٍ هاربة، وما انفطر قلبه عن حب أحدٍ كحُب ميا، يروح عليها ويجيء، يكتب إليها الشعر وترده، تبتسم لنجمةٍ في السما، فيشير إليها ويقول أنتِ، لكنهما صانا حُبهما عن الناس والشهوة، ليس كفساق الكعبة إساف ونائلة».

أكمل الحارث: «لمَّا عَلِمْت بحب مضاض وميا ذهبت إلى أبيها عند الغروب، وفي السماء نجمٌ قليل وسواد، فحدثته لنزوِّجهما ووافق، لكن هلال رجب كان قد ظهر بين النجوم، ولا نُحدث في رجب غير العُمرة والطواف، وكان على مضاض وميا أن يصبرا على الأشواق حتى يأذن الله، لكنه لم يأذن قط، لم يأذن قط. لماذا قتلت إساف ونائلة في الحرم؟ لماذا في الحرم؟ بقيت اللعنة مكانهما حتى أصابتني».

بكى الحارث، وظل يهمس بكلماتٍ لم نفهمها، كان ينظر إلى السماء ثم يضع رأسه بين ركبتيه ويهمس، ثم يبكي ويهمس، لم يتحمل الحارث أن يحكي أكثر، فسكت طوال الطريق حتى حدثتُ عنه، لم يذبحني إياد الذي ظل

طوال الليل يبكي وينظر إلى النجوم ويُنشد شعر الفتاة الفراتية هو الآخر، لم أتخيل أنهما ضعيفان هكذا، لا يتحمل عرقهما ولا بؤسهما إلا جنٌّ أو جبل، لكن إيادًا مسح دموعه، وقام فصرخ في السماء: «أنت تسمعني لا محالة، عليك بحالي فقد ضلَّ سعيي وهلك مالي».



قالت الناقة الثامنة:

حين أشرق الصبح، كُنا على مشارف مكة، وأقسم إياد على الحارث أن يُكمل عليه قصة الحبيبين، فقال الحارث:

- لِمَ تبحث عن الحزن يا بني؟ الدنيا أقصر من أن تحزن. هأنذا، تهت في صحاري الله مئتي عام. جمعت المال في شبابي دُرًّا وياقوتًا، وماذا الآن؟! كُنت ملكًا، ماذا الآن؟ صنعت آلهة بيديَّ حول الكعبة، جعلت الناس يعبدونها، كنت كجبل المطابخ أو أقوى، إن ضربت عشرة بكفي غُلبوا، وماذا الآن؟ لا تتعجل الحزن سيأتيك لا محالة، سيأتيك. أوصلنا مكة؟

- نعم.

- خُذني إلى الكعبة.

***

دخلنا مكة قبيل الفجر، كان ضجيج المعتمرين قليلًا، والهواء باردٌ كليالي حكايات الحارث، سمعتهما ينويان العمرة، وعقدا خطامنا قُرب الكعبة، بدأ الطواف فرأيت الحارث يأخذ بيد إياد ويقول: «أترى الحجر؟ أمامه بخطوتين سقى مضاض فتاةً عطشى، لم يعلم أن الواشون سينقلون الخبر إلى ميا، بل وقالوا على لسان مضاض شعرًا يتغزل فيه بالفتاة، فهجرته ميا حتى بعد أن قال فيها كل الشعر، ومشى إليها كل الخُطى وحدث فيها كل النجم، لكنها هجرته».

***

بعد أن فرغا من العمرة أخذنا الطعام من مكة، وشربنا حتى ارتوينا، وعقدا المسير الأخير نحو كهف الحارث.

سأل إياد عما فعلت ميا بعد الهجران؟ كان يريدها أن تعود، أن ترد عليه الشعر والخطى، أن تقول له قد أتيتك من الفرات بفرات.

***

قال الحارث:

- صدت، حتى بعد أن انقضى رجب صدت، وامتنع مضاض عن شرب الماء لأنها كانت سبب القطيعة، حاولنا ثنيه، أرغمناه، قربنا القرابين ورمينا فمه بالماء وهو نائم، حملناه حملًا ووضعناه في الماء، لكننا فشلنا، فشلنا، أوصلنا موطن الموت؟

- نعم، ما علاقته بمضاض؟

لم يجب الحارث، وظل يبكي ليلتها بكاء طفلٍ صغير، ثم لم يتكلم إلا حين قال: «اتجه نحو الجنوب ناحية الشمس، ستجد النفق حين ترى سدرةً وصخرة، تسمع عندها صفير حيات ونخرة».

حينها حدثُ عنه وجنَّ الليل وناما في موضعهما.



قالت الناقة التاسعة:

استيقظنا وما زلنا في وادي الموت، ركبني الحارث ومشينا نحو صفير الحيات والصخرة، وفي الطريق أقسم إياد مُجددًا على الحارث أن يُكمل قصة مضاض وميا، فقال الحارث:

- هنا موطن الموت، هُنا وقع مضاض من فوق ناقته بعد أن هدَّه العطش، ولم يكن على لسانه غير شعرٍ يستعطف به ميا، نقل كل الناس الشعر، كل الناس قالوا لها زوريه ولم تزره، حتى مات في حجري، ولم يزل شابًا.

- وميا؟

- بكت بعد فوات الأوان حتى كادت تختنق، بل وجاءها الناس يعزونها كأنه زوجها، ليتها ما بكت، ليته لم يمت. كان ممن جاءها تلك الفتاة التي سقاها مضاض عند الكعبة، صاحت فيها ميا، تعجبت كيف للفتاة ألا تبكي على حبيبها مضاض، عرفت ميا بعد فوان الأوان أن الفتاة لم يجمعها بمضاض شيءٌ قط، وما قال فيها شعرًا ولا نظر إليها نظرة.

***

كادت ميا تُجن، بقيت ليومٍ كامل تسعى بين الصفا والمروة، حتى وقعت مغشيًا عليها، وظلت تقول الشعر في مضاض قبل أن تُقسم على ألّا تشرب الماء مثله، فهدَّها العطش وأوصت أن تُدفن جوار مضاض، وهو ما حدث، ماتت ودُفنت جواره.

***

فرغ الشيخ من الحكاية، ليجد إيادًا بعينيه دموع وبصوته تغيرٌ كالمكلوم، حتى لم يستطع أن يقول للشيخ «وصلنا إلى السدرة والصخرة»، لكنه أوقفنا وأناخنا.

همس الحارث بين كفيه، ومسح وجهه وبطنه، فانفجرت الأرض تحت الصخرة، وظهر نفقٌ طويل، فأغشي على إياد وحدثُ، ووقع الحارث على أنفه مُجددًا.

***

أفاق إياد بعد برهة، لكن الحارث طمأنه، قال له: «كما وعدتك، ستأخذ أجرك درًّا وياقوتًا تحمله فوق نوقٍ سود، لكن خذني إلى الداخل دون أن تلتفت».

ركب الحارث الناقة العاشرة، وأخذ إياد بخطامها ودخلا النفق، ولم نرهما إلا عند الغروب.



قالت الناقة العاشرة:

كان النفق واسعًا كأنه أرضٌ تحت الأرض، حتى سرت فيه أحمل الحارث بين صفير الحيات، لنجد في نهاية النفق، رأس ليثٍ ضخمًا تجمد فصار جبلًا أحمر، له نابين بارزين من العاج في طول نخلة، وكان تحت الجبل الأحمر نهر من الدر والياقوت والعقيان، خُطف بصري حتى كدت أعمى، نظرت إلى إياد فإذا به قد نسي كل دموعه، ولم يلتفت إليه الحارث الذي نزل من فوقي وسار إلى آخر سفح الجبل.

***

بآخر السفح ظهرت حجرة ضيقة، دخلها الحارث ووقف إياد ممسكًا خطامي على بابها، كان في الغرفة أربعة أسرَّة، وجوارهم أربعةُ عبيد من الجن، ثلاثة من الأسرَّة عليها ثلاثة رجال، وسريرٌ فارغ تقدم نحوه الحارث ببطءٍ كأنه يستعد للموت، فجلس فوقه ثم تناول قنينة صغيرة كانت جوار السرير، وسقطت منه دمعة، وقال: «هذا أبي، وهذا جدي وهذا جد جدي، وها أنا الآن أكمل عقدهم».

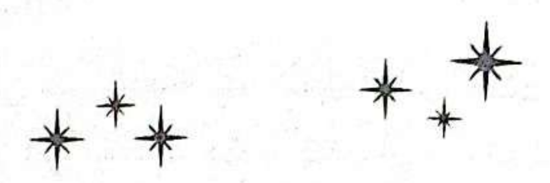
بعدها رقد الحارثُ على السرير، ورثى نفسَه بأبيات شعرٍ يقول فيه عن سراب الدنيا المنتهي، مهما طال العمر، وأمر العبيد أن يحملوا الدر والياقوت عن إياد، ثم مات، وبعدها خرجنا مع العبيد نحمل الدُر والياقوت.

***

خرجنا من النفق فعادت الأرض كما كانت، ووقعت على موضع الباب صخرة، ثم رجعت القوة فجأة في النوق الحائدة، ورجعنا مكة مع عبيد الجن، نحمل الدر والياقوت، وعشنا بعدها مع إياد حتى نهاية عمره فوق ما تعيش النوق، وعاش إياد، غني حزينًا، تزوج من النساء عشرين، ولم يفرح قط، إلا حين جاءه منادٍ يقول: «إن كنت إيادًا؛ فإن امرأة فراتية، تبحث عنك عند الكعبة، أمام الحجر بخطوتين».

الذنب الأكبر

«الحكاية الأولى لنائلة»



قالت نائلة الجُرهمية:

تراني الآن عجوزًا سوداء شمطاء، أليس كذلك؟ لم أكن كذلك في صِغَري أيام اليمن، ولا في شبابي حول البيت الحرام، ولا يوم مقتلي داخل الكعبة.

***

كُنت كبدر الكعبة، عينيَّ كالكوكب، وأنفي كتماثيل الفاو، أو مروةٍ منحوتة، كأن الريح تُجملها كلما لامستها، وشعري إن خلعت لباسي؛ ألبسني، لكنه لم يُغطني يوم دخلوا علينا الكعبة وفوقي إساف.

***

آهٍ يا إساف، آهٍ على الأيام التي حلمنا فيها بالتلاقي الطويل ولم، آهٍ على طول أيام الألم، أتذكر يوم رأيتك أول مرة، أيام اليمن، كُنا صغارًا ما زلنا نستكشف شهواتنا، مر على رحيل أغلب القبيلة يومها أعوام، ولم يبق غيرنا، رأيتك وسط الفتيان طويلًا كنخلة، كنتم تعبثون في البيوت التي خربها السيل بعد تصدع السد، وهُجران الأهل، كأن البيوت تخاف الوحدة كما تخاف السيل، فتترك عبثكم، وكُنت لا أشعر بالوحدة لأني أراك؛ أراك حين تزرع اللبان، وحين تعود من الشاطئ تحمل الأسماك، وحين جهزت النبال لأعمامنا الباقين من جُرهم في حربهم مع الأزد، وحين تمسح شاربك الهش كي يظهر فأضحك، وحين أبتسم كل مرة تأتيني فيها بالحناء من تُجار الحبشة، أقسمت إنك تدفع فيها ألف سمكة، فأضحك وأضحك، مرة لكذبك، ومرة لأني أخالني ملكة؛ أخالني بلقيس، لكنك لست ملكًا، ولم أقبِّلك رغم تكرار التلاقي.

***

لكني لا أنكر أني رأيتك ملكًا، كُنت أنت التُّبَّع، حامي سد مأربٍ من التصدع، خلتك فوق فرسٍ حجريٍ لا يخضع، وتحملني وتطير كأنك تستطيع عبور

البحر راكبًا، لكن كل هذي الأحلام تبددت يوم أن وقف أبي بوجهٍ يُشبه سماء الليل المطير، وقال: «سنلحق بباقي القبيلة في مكة».

***

نظرت حينها إلى بيتنا الذي بقي على ضعفه بعد السيل الأخير، ظننت أني سأفرح بالشمال السعيد، ظننت أني سألقاك حتمًا، ظننت أن مستقبلنا سيصير ورديًّا جوار بيت رب إبراهيم، لكني فغرت فمي إذ سمعت أباك يقف وسط القوم وأنت جواره، قال كأنه مُنَزَلٌ من السماء: «أستغفر الله أن أرحل، إلا إن كفَّر الله ذنوبنا بنفس الأرض التي عُصي فيها، كيف أرحل وما زالت لعنة الله باقية، وما زال سيل العرم فوق بيوتنا، كيف أرحل ولم نتب من الكُفران؟».

انصرف الناس عنه، قالوا: «أيُّ استغفارٍ وأيُّ رب! ليعبد الإله وحده، وليترك المستقبل لنا».

قرر أبوك أن يبقى وحيدًا يا إساف، وسط طلل السيل، وسط بحار الهُجران والفئران التي أكلت سد مأرب.

***

جهزنا للرحيل وقامت ناقتي المنوخة أمام عينيك، أمام بكائك الذي لم أنسه، وسارت بي في ظهر أهلي، تتقدم الناقة بالصحراء القريبة، وتصير أسماكك بعيدة، فأنظر إلى الحناء على يديَّ، ويدفعني هودجي للأمام مرة فأتشبث بالخلف حيث أراك، ويدفعني للخلف مرات فأترك نفسي حيث الأمل بلقياك.

سرنا خمس ليالٍ حتى اكتمل القمر، ونزلنا وادي عياء وأُنيخت ناقتي وسهرت الليل أحدث البدر حتى رأيتك، رأيتك خلفنا، بطولك خلف صخرة، كررت النظر، أغمضت عينيَّ وفتحتهما، ونظرت حولي حتى أتأكد أن لا أحد ينظرك غيري، ومسحت على ظهر ناقتي لئلا تنفر، وتركت القوم في نومهم ومشيت على أناملي مُتحسسة الأرض والضوء، حتى التقينا، سرقنا النجوم لأول مرة من الكون إلى أعيننا، أشرنا إليها ببراءةٍ كأنه اللقاء الأول، قُلتُ للدبران: «هذا اسمه إساف». قُلتَ للزُهرة: «هذي اسمها نائلة».

***

عُدت إلى قومي بنفس الحال التي تركتهم عليها بعد أن تحدثنا الليل كله، وسرقنا الليل كل ليلة من أعين القوم ومن نفور الناقة، يسير القوم وتسير خلفنا، وأجيئك بالطعام والكلام، ما أجمل الليل مع حبيبٍ لا ينام، ما أجمل الأحلام التي لا نفيق منها، ما أجمل مكة التي كانت في خيالي معك، وما أقبح طيرها الذي ظهر أمامنا، وصلنا، وصلنا يا إساف وانتهى التلاقي، أين ستختبئ الآن، ستعود؟ قُلت لي مضطربًا: «سأقول إن الجن خطفني وعُدت، سأقول إني آمنت وعُدت إلى دين سبأ من جديد، سأجد ألف حُجة، لكني سأقنعهم فيأتون، سأتزوجك لا محالة!».

***

كان لقاؤنا الأخير خلف الصفا، وطيرُ زمزم فوقنا. تعجلت الرؤيا فلم أربت سنام الناقة، ولأول مرةٍ شعرت ناقتي بغُربة المكان الجديد وبغيابي فنفرت، ولم نفق من سكرةِ غيابنا إلا والناقة بقربنا تعدو، سمعتُ صوت أبي خلفها واختبأنا، كانت بيوت جرهم أمامنا في كل ناحية إلا من ساحةٍ خالية تَصلُ إلى بيت رب إبراهيم، نظرنا حولنا وإلى النجوم وأبي الذي اقترب، والناقة التي رأتني فتبعتني.

عدونا بأقصى ما نستطيع، وسط بيوت القوم والنجوم، البيوتُ توقظ ساكنيها، والنجوم تُخبئنا منهم ومن أبي، والطيور فوقنا كأنها تَرقب ما يجري، ونحن نعدو ونعدو، نلتقط أنفاسنا ونعد الخطوات بيننا وبين صوت أبي، حتى وقفنا أمام الكعبة، واقتربت الناقة، فأدخلتك الكعبة وعدت أنا إلى مكان القوم.

***

هدأت الدنيا من جديد، وعاد أبي بالناقة ليسألني، أين كنت حين هربت الناقة، سكت أول الأمر لكنه لطمني، كذبت، قُلت كنت أقضي حاجتي، كان الكذب يبين من عينيَّ ووجهي، لكنه تعمد أن يُصدقني، ولم أفهم ذلك إلا في الليلة التالية.

في الليلة التالية هدأت الدُنيا ونام القوم وحملت الطعام إليك بالكعبة، شعرنا بأمانٍ غريب، الحوائط تحوطنا، والسماء تبتسم، كأن لا أحد يراك.

شعرنا كأن السيل لو ضربنا مُجددًا لما أصابنا هُنا، شعرنا أننا آلهة، فجردتني من ملابسي لأول مرة ووقعت فوقي داخل الكعبة.

***

جرى ما جَرى وغبنا في متاهات الرغبة المُكتشفة، أصواتنا غطت أصوات الكون، والنجوم رأيتها خلفك تبتسم، كُل شيءٍ كان لنا لأول مرة.

أفقنا على صوتٍ يضرب جدار الكعبة، وسمعتُ صآلة ناقتي كأن سهام القبيلة كلها قد أصابتها، وكُسر باب الكعبة ورأيت القبيلة كلها فوقنا فانكمشت يا إساف في الركن الأيمن وغطيتُ جسدي بشعري، كُنت أرتجف، أرى كل العيون مُصوبة إليَّ، كل العيون تأكلني، وقلبي لم يكف عن ضرب ضلوعي، لماذا لم أمت حينها لماذا؟ لماذا لم يقتلوني ليلتها؟

سحبوني من ذراعي إلى خيمة أبي، وكنتَ تحت ضرباتهم في رُكن الكعبة.

***

كان الليلُ طويلًا رغم ما مر منه، شعرتُ كأني إن عددت حبات الرمل بين الصفا والمروة لأنهيت العد، ومع شُعاع الشمس الأول، وقفت القبيلة كلها عند بئر زمزم ووسطهم الحارث بن مضاض حتى الطير حام كأن بئرًا جديدة قد حُفرت.

استعاذ الحارث برب إبراهيم من الآثمين وقال: «رأيتُ في المنام نبي الله إبراهيم، يقول: «القتلُ مُباحٌ في الحَرم إن كان بحق، فاقتلوهما، واصنعوا لهما تمثالين فلا تنسوا فعلهما القبيح ما حييتم»».

***

هللت القبيلة ورفعوا الخناجر، ثم دخلوا الكعبة وقتلوك يا إساف، قتلوك. خرجوا رافعين جسدك النحيل فوقهم وفيه ألف طعنة، كنت كالقوس، معوجًا، كأنك ستصعد إلى السماء بقلبك، ونما خوف قلبي بدمعي عليك الذي لم يقف، دون أن أصرخ.

***

رموا بجسدك بعيدًا، واصطفوا حولي وعلى وجوههم ضحكة، كضحك الجن في ليالي السفر، منعهم أبي أول الأمر مني، لكنه لم يستطع حمايتي بعدها.

***

حكم عليَّ الحارث مُجددًا بالقتل، لكن بعد أن أطوف عاريةً حول الكعبة كي أُكفر عن ذنبي. قال: «ربما يأتيني النبي في المنام فيتوب عليكِ».

رفضت الطواف قبل الليل، خلت الليل يحميني من العيون التي أكلتني في الكعبة، خلت الليل يحميني كما حمى ليالي معك يا إساف، خلته يسترني، أين أنت يا إساف؟ قد فقدت الأمل بعدك، وطُفت عرجاء مُنحنية، وشاهدتُ القبيلة كلها حولي. لم ينظر إليَّ أبي، لم أعلم أكرهني حقًّا أم كان يُريد منعهم، لكنهم قتلوني ورموني في صحراءَ بعيدةٍ عن مَكة، وبعيدة عنك.

***

عادت روحي إلى مكة تبحثُ عنك، ولم أجدك، لم أجد روحك، أخذتها النجوم أم عادت لليمن تستغفر الله مع أبيك؟ كنت أسأل، لم أجدك عند سد مأرب الذي انهدم وقتل أهله بسيل العرم، ولم أجدك في قصر بلقيس ولا عند البحر ولا حول أشجار اللبان، أين كنت؟ لم أجدك عند عرافي الحبشة الذين يعرفون كل شيء، لا أعلم، لكني بقيت جوار الكعبة أستغفر رب إبراهيم وأدعوه أن يُعيدك وأن يعفو عني.

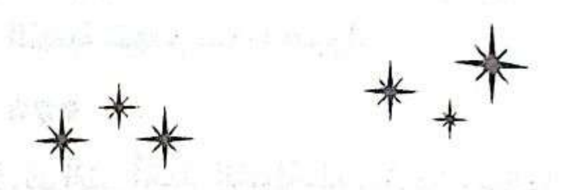
***

رأيتُ الحارث يأمر الصُناع أن ينحتوا تمثالين كما قالت الرؤيا، صنعوا الأول على شكلك، كان يُشبهك حين حملوك، لكنه لم يكن محنيًّا، رأيت بعينيه خجلًا وعلى ثغره بسمة. قال الحارث: «اجعل على وجهه غضبًا من الله».

فغيَّر الصانع وجهه فصار قبيحًا، لكني لم أتركك، بقيت سنين جوار قدمك أدعو، ولم أزر أبي قط، رأيته مرة يبكي أمام الكعبة، لكنه لم يُكررها، ولم أتركك أو أترك الكعبة، وحبستُ نفسي في تمثالي الذي جعلوه أسود وجعلوني شمطاء، وآثرت انتظارك على أيِّ شيءٍ آخر، أترانا نلتقي؟

نهاية جرهم

«الحكاية الثانية لنائلة»



قالت نائلة الجُرهمية:

✦ قبل أن تأتي الكاهنة طريفة مع قومها الأزديين على مشارف مكة كان حال مكة قد انقلب؛ مرت السنون وتبدل الناس وسار الزمان على وجوه جرهم. رأيتُ بعينيَّ الحارث وهو يقتل الناس أمام الكعبة بلا حق، رأيته يسجد أمامنا دون الكعبة قائلًا: «أمرني نبي الله إبراهيم أن أعبدكما وأن آمر الناس فيقصدونكما لحوائجهم».

جاءني الناس بالدر والياقوت وبالفضة والذهب: «لتشفي ابني يا نائلة». «لتحمل عني الوزر يا إساف لعنك الله». والحارث يأتي في الليل فيضحك ويأخذ كنوز الكعبة فيخبئها تحت بيته.

***

رأيته يصنع تماثيل ذهبية كتماثيل الفاو، رأيته يجمع الفضة في صناديق كبيرة، رأيته وهو يأكل الربا ويشرب الخمر في الليل، ويحكم بين الناس فيما أمر رب إبراهيم في النهار، وإن لامه الناس استغفر رب إبراهيم وعاد إلى فعله، حتى أطاعه الناس في شرب الخمر والربا وعبادة الصنم.

***

جاءت طريفة، وجاءت معها سيوف الأزد وأذرعهم، جاءت بعشرين ألف رجلٍ مُحاربين يأكلون الصخر والرمل، لا أنسى يوم دخلوا مكة، رفض الحارث اقترابهم، رفعت الأزد سيوفها، وقالت طريفة: «خذوا البعير فخضبوه بالدم؛ تلون أرض جرهم جيران بيته المحرم».

ورفع الحارث سيفه وهو يتمايل من شربه الخمر.

***

قال الأزديون مُجددًا: «لم ننزل بلدًا إلا أفسح أهلها لنا وتزحزحوا عنا، فنقيم معهم حتى نرسل روادنا، فيرتادون لنا بلدًا يحملنا، فأفسحوا لنا في بلادكم». قال الحارث: «لن تنزلوا فتضيقوا علينا مراعينا».

وقامت الحرب في صحن الكعبة، وارتفعت السيوف حتى وصلت إلى السماء، وامتلأت ساحة الحرم بالدماء، وعلا نواح نساء جرهم اللائي تبدل حالهن في نهار، ورأين رجالهن وسط رجال الأزد كالشعيز بالرحى، وقُتل قرابةُ المئة في أول يومٍ حتى كادت الكعبة تنهدم حجرًا حجرًا.

***

أفاق الحارث لأول مرة، رأى القتل قد أفنى أخيار القبيلة، لم يبقَ من رجالها ما يُطيل أجلها، نظر إلى سيوفه الذهبية، الذهب لا يتحمل ضرب الحديد ولا سيوف الهند، أنُهديه إلى الأزد فيرجعون؟ لن يقبلوا إلا النزول وستعيِّرني العرب. بدا تائهًا، ينظر إلى كل الاتجاهات حوله كأنه يخاف من شيءٍ ما، والأزد لا يقبلون إلا النزول بمكة. كيف سينزلون بقوتهم تلك؟ سيأخذون الذهب والياقوت، سيقسمون القوت، رأيت عينيه وسط الحرب التي بدأت، تائهتين. كأن الزمان انقلب فيهما فجأة، لكنه أشعل نارًا جوار الكعبة وجمع ما بقي من الرجال وقال: «ادعوا نائلة، وسآتيكم ما ينصركم الله به على الأزد».

***

خروا أمام تمثالي يتساءلون عن هذا الشيء الذي سينصرهم على الأزد، صدقوه كما يصدقون منامته، وتركوه يرجع إلى بيته وهم ينظرونه فوق فرسه، وصوت الكاهنة طريفة يتردد بين الجبال: «خذوا البعير فخضبوه بالدم؛ تلون أرض جرهم جيران بيته المحرم».

***

تركت تمثالي وسرت خلفه، تبعته في كل وادٍ، رأيته وهو ينظر خلفه حتى وصل إلى بيته، ورأيته مُجهزًا إبله، قبل أن يحمل فوقها كل الدر والياقوت، الذي خبأه تحت بيته، وحمل معه أهله، لكن وقبل أن يترك الحي ومكة، قضى جزءًا من الليل في خلسةٍ من الناس في ردم بئر زمزم، وأخفاه، وخرج ولم يعد، وقامت الحرب مُجددًا في الصباح وفنيت جرهم عن آخرها، حتى لم يبقَ فيها رجل.

***

قُتل أبي أمامي، تحت قدميَّ، وشربت الرمال دموعه، وبقي دمه على تمثالي زمنًا طويلًا، حتى هدموني في عصر النبي مُحمد، وحتى هذا العصر بقيت على أملٍ واحد؛ أن يزورني إساف أو يعفو الله عني وتصعد روحي إلى السماء.

تُرى من أعظمنا خطيئة، الحارث الهارب أم أنا، أم قد يكون أبي؟

توبة الحارث

«الحكاية الثالثة لنائلة»



قالت نائلة الجُرهمية:

في يومٍ غريب سمعنا صفيرًا عاليًا يأتي من كل مكانٍ كالجراد، وهرولت قطعان الشاة من البادية، كأنها تتسابق، أتوا من كل ناحيةٍ كأن جيشًا من الجن أخافهم فجأة، وسمعنا المنادين يصرخون في الناس: «الريح ستقتلع الخيام، لتسكنوا البيوت وتحفظوا أنفسكم وتدعوا الله أن يحميكم».

***

حدث ذلك بعد سنين بعيدة من ردم زمزم، سنين تغير فيها كل شيء، حتى الناس وأنا، بقيتُ حبيسة تمثالي بعد أن فنيت جرهم وبقي دم أبي على قدميَّ ولم يعد إساف، صار البيتُ الحرام كئيبًا، الناس غير الناس، كانوا يعبدون رب البيت، صار الناس من الأزد الذين تغلبوا وممن بقي من نساء جرهم يعبدونني لأن الحارث أخبرهم بأن النبي إبراهيم أمره، لماذا يعبدونني الآن؟ لماذا صنعوا بأيديهم الأصنام وامتلأت كل هذي الساحة بها؟ لماذا صدقوا الحارث حتى بعد أن هرب؟ لماذا لم تعد يا إساف؟

***

مر الزمان سريعًا وتغيرت مكة أسرع، لن أنسى يوم وضع عمرو بن لحيٍّ التمثال الأول، ظننت أن الدنيا ستثور، سيبعث الله ريحًا عليهم فتُفنيهم، سيرسل عليهم جيشًا ليُجليهم، سيسير فيهم الطاعون، لماذا لم يغضب الرب كما غضب على سبأ فأرسل عليهم سيل العرم؟ لماذا لم يهدهم كما هدى بلقيس؟

***

«الريح ستقتلع الخيام، لتسكنوا البيوت وتحفظوا أنفسكم وتدعوا الله أن يحميكم».

دخل الناس البيوت وسط بكاء الصغار والنسوة، ارتفعت الريح أكثر وأكثر، وأغمضت عينيَّ مُنتظرةً نهايتهم ونهايتي، ظننت ذلك الصفير وتلك الشاة التي خافت نذير ريحٍ لا تُبقي ولا تذر، أو سيلٍ لا مثيل له، ظننت أن غضب الرب قد أتى أخيرًا بعد أن عصوه.

***

سمعت صوت بكاءٍ جواري، فتحتُ عينيَّ فرأيته، كان هو، كانت روحه؛ روح الحارث بن مضاض آتيةٌ من الماضي البعيد، أغمضت عينيَّ مُجددًا، وزاد في بكائه وثارت معه الريح حتى اقتلعت بعض الخيام، وقال: «صنعت مغارةً كبيرة كبيرة، لكني زهدت الأموال فأعطيت نصف الدر والياقوت لأشقى أبناء نزار بن معد، وقتلت نفسي، وفتحت شقًّا بالمغارة كي يتعثر به صعلوك أو أي عابر سبيل، ويأخذ النصف الآخر، وهي في مكانٍ كذا، دُلي عليها من تشائين، لكن، اغفري لي، اغفري لي».

لم أنظر إليه، قال: «استغفرت رب إبراهيم، عاهدتُه ألَّا أقبل الحرام بعد رحيلي، وبقيت مئتي عام دون ارتكاب جُرم، وأنهيت حياتي كي أستطيع العودة إليكِ».

لم أنظر إليه، قال: «سأطوف العالم فآتيك بروح إساف».

نظرتُ إليه وبكيت، ثم عُدت فنظرت إلى الأرض، ومضى هو تاركًا مكة كأول مرة، لكن بلا درٍّ أو ياقوت.

***

عُدت وحيدةً كما مرت عليَّ السنون وحيدة، وتزداد وحدتي في الليل، يكاد الوجود أن يبتلعني، حتى الريح الخفيفة تُهيج آثار الدم على قدميَّ.

وفي إحدى ليالي البدر، جاء شابٌ أقرع على غير شاكلة العرب. قال: «أريد مالًا يا نائلة، مالًا لي وحدي ليس لأبي فيه دخل، وليس ملعونًا كمال الصعاليك، طلبت من كل الآلهة، ولم يبق لي سواك».

كان غريبًا، بعينيه شرهٌ كأنه لا يأكل إلا النار، وبأسنانه بروزٌ كأنها تسبقه إلى كل لذة، اللذة التي تجعل أقوى العرب يخر أمامي، اللذة التي جعلتني حبيسة هذا التمثال، وملعونة الكعبة ما حييت.

***

انصرف هذا الأقرع من أمامي ومرت الليالي كئيبةً كما كانت، حتى غاب القمر في ليلةٍ جاء فيها رجلٌ على حافة التمام، مهيبًا كسد مأرب في حكايات الأجداد، لم يسجد هذا الرجل لصنم، بل رأيته ينحني إلى الأرض فيمسك حفنةً من التُراب ويضعها على رأس كل صنم، ثم يتمتم بكلماتٍ لم أسمعها حتى جاء أمامي ووضع التراب على وجهي الأسود وقال: «أستغفر الله يا ملاعين، ردمتم زمزم وغابت البركة عن مكة، أستغفر الله يا ملاعين، أستغفر الله».

***

انصرف هذا الرجل مُخلفًا وراءه صمتًا غريبًا، قبل أن تثور الريح في نفس الليلة عندما عادت روح الحارث.

اعتذر مُجددًا ومُجددًا، طلب أن أفعل له ما أريد غير الإتيان بروح إساف، لم أرضَ، لكني أخبرته بأمر الرجل الذي غبرنا بالتراب، والفتى الأقرع.

لا أعلم لِمَ أخبرته، شعرت أنني أريد مساعدتهما، أو ربما أردت أن يكفر الحارث عن ذنبه.

***

في الليلة التالية وجدتُ الرجل الذي غبرنا، قادمًا يحمل فأسًا من فؤوس اليمن، وظل يحفر في نفس موضع زمزم القديم الذي ردمه الحارث، لم يخرج الماء في الليلة الأولى، ورأى الناس حفره في الصباح فضحكوا: «جُن عبد المُطلب، يريد إيجاد زمزم من عدم».

كان الأقرع الذي طلب مني المال من الضاحكين، لكنه لم يبقَ مع الناس ورأيته راكبًا فرسًا أسود، وانطلق ناحية الجنوب، وجاءني الحارث حينها وقال: «قد ساعدتهما، سامحيني».

***

همت في الصحراء وراء الأقرع، لم أعلم ما دفعني خلفه، ربما أردت معرفة كيف ساعده الحارث، إلا أني رأيت اليأس في عينيه، رأيته واقفًا فوق جبلٍ يُريد أن يقتل نفسه، نظر حوله، ونظر إلى السماء الخالية وقال: «يا رب، ألمٌ بدنياي وألمٌ عند الموت، ليقتلني سبعٌ ضارٍ فلا أبقى بعد الصرع طويلًا».

نزل من فوق الجبل هادئًا وهام طوال اليوم لكنه لم يجد سبعًا، فنظر إلى السماء التي بدت النجوم فيها وقال: «لتقتلني أفعى، فيكون الألم قليلًا وأموت، لترحمني يا رب ولو مرة».

***

هام مُجددًا باحثًا عن جُحر أفعى، انصرف عن سبعين جُحرًا لأنهم صغار لن يُنهوا حياته بسرعة. أشفقت عليه، لكني رأيته وقد تعثر بصخرة، عندها صفير حياتٍ ونخرة، ورأيت نفقًا ضخمًا قد ظهر تحت الأرض.

***

ظل يلتفت كثورٍ هائج، ما هذا؟ ضرب أذنه، وأمسك حفنةً من الرمال ووضعها على وجهه، ودخل النفق، رأيته يصرخ كالمجنون، وهدأت النار بوجهه كأن سيلًا أسكنها، كأن خنجرًا غُرس بقلبه وصار بقلبٍ جديد، عقلٍ جديد، كبدٍ جديدة. حتى الثياب، خلع أسماله وارتدى عباءة حريرية بها خيوطٌ من ذهب، كانت أمام سرير الحارث، ظل ينظر إلى أكمامها وإلى نفسه في عجب، ثم ارتدى تاجًا من ياقوت وخاتمًا من فضة، ظل يضحك ويضحك، وصرخ في نفسه: «صرت ملكًا يا ابن جُدعان، ولن تعود إلى الصعاليك أو يجرؤ أبوك على معارضتك بعد اليوم».

***

خفتُ منه وعُدتُ وسط الليل مُهرولةً إلى تمثالي جوار إساف الذي لم يعد، وفي نفس هذي الليلة المُخيفة تفجرت زمزم بين يدَيْ عبد المطلب.. رأيته ساجدًا حتى كاد الماء يغرقه، وقام والطين يملأ وجهه، هل تاب الحارث حقًّا؟ لماذا لم تعد يا إساف!

شيخٌ وشيخ

«الحكاية الرابعة لنائلة»

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ



قالت نائلة الجُرهمية:

عادت زمزم إلى الحياة، رجعت أكبر خطيئة للحارث، ولم يعد إساف. كل الأيام صارت متشابهة، الذنب مُعلق برقبتي والناس يعبدونني، كُل الناس يعبدونني، العبيد والإماء والسادة، السادة الذين صار ابن جدعان منهم، أصبح سيد جميع كنانة، بعد أن كان الصعلوك فيهم.

***

أنفق ابن جدعان المال على أهله، فتح لهم داره وماله، واجتمعوا كلهم حوله، ولذا فقد وقف مع السادة ذات يومٍ بوجه عبد المطلب، قالوا له: «زمزم لنا جميعًا كما لك».

كانوا جميعًا ضده، قوة المال والعصبة، قوة الدُر والأذرع، ووقف عبد المطلب وحيدًا أمامهم لا يدري ما يقول، لكنه نظر إلى السماء وقال: «إن رزقتني يا رب عشرة أبناء لينصروني، سأذبح واحدًا قُربانًا».

***

مرت سنون طويلة حقًّا، كيف صار ابن جدعان شيخًا مهيبًا يُطعم العابرين، كان يُرسل كل ليلةٍ رجلًا أمامي فيقول: «من أراد الشحم واللحم فعليه بدار ابن جدعان».

وتجتمع قريش في جفنته فيأكلون بلا مقابل، بل وجهز المُحاربين منهم، جهز بماله قريشًا في حربها التي انتهكوا فيها الأشهر الحُرم، كان أقوى الناس بلا نِد.

***

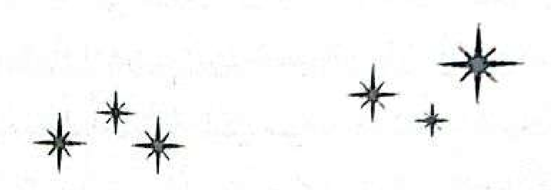
خفضت رأسي مُجددًا ولم أرفعه إلا يوم جاء عبد المطلب بابنه عبد الله ليذبحه. رُزق من الأبناء عشرة وها قد جاء ليفي نذره.

ارجع، ارجع يا عبد المطلب، تخاف من الإله فتذبح ابنك؟! أي عقلٍ هذا؟ ارجع. حاول كل الناس منعه، لكنه أقسم، كان يمسك ابنه بيمناه وبوجهه أثر دمع، شدوا ثيابه، شدوا ابنه منه حتى خُلعت كتفه، لكنه أقسم، لم يتوقف إلا حين طلبوا منه بلينٍ أن يسأل العرافة.

سألها فمنعته، قالت له افدِهِ، ففداه بألف بعيرٍ، واستغفر الله. يومها ووسط دماء الألف بعير، كان ابن جدعان واقفًا ينظر قوته التي وقف أمامها عبد المطلب، هل تبقى القوة على حالها؟

ضباعة، ما هي القوة؟

«الحكاية الخامسة لنائلة»



قالت نائلة الجُرهمية:

في يومٍ من أيام عكاظ وقَفت أمامي فتاةٌ وجهها كبدر الكعبة، وعيناها كالكوكب، وأنفها كتماثيل الفاو، أو مروةٍ منحوتة، كأن الريح تُجملها كلما لامستها، وشعرها إن خلعت لباسها؛ ألبسها. قالت: «يا نائلة، مات عني هوذة الحنفي وترك لي ما لا يُرضيني وإن كَثُر، زوجيني يا نائلة برجلٍ له من الدر والياقوت، ما ليس لملوك اليمن ولا كندة ولا الروم».

***

رأيت نفسي فيها، هي أنا لا ينقصها غير حناء اليمن على كفَّيها وحبيب يُنشد فيها الشعر، ذهبت أتبعها، وهي تمشي كغصن شجرة لبان، تبحث عن الحرير في أسواق مكة مارة على جفنة ابن جُدعان الذي صار شيخًا كبيرًا، زننت بأذنه، فتلفت كيوم الجُحر باحثًا عن الصوت، فقُلت له: «تزوج من ضباعة».

***

كان يبحث يومها عن شيءٍ يعيده السيد في عين نفسه، كان يريد أن يقول للناس ما زلت مرغوب النساء وإن كبر العظم، كان يريد أن تتكلم العرب، كُل العرب، عن السيد ابن جدعان الذي خطب أجمل نساء العرب.

خطبها ووافقت، حضرت قريشٌ العُرس عن آخرها، وأتت القوافل من كل بلاد العرب تهنئ ابن جُدعان على أجمل نسائهم، وقف الشباب يحسدونه، أترضى بهذا الشيخ؟ أيُرضيها؟ أم الأموال تكفيها؟

***

بعد سنة جاءتني مُجددًا بوجهٍ كاد الذبول يطوله، وقالت: «يا نائلة، أريد أن أنجب، لا فضة ولا ذهب، أريد زوجًا بلا رائحةٍ كريهة».

مشت باكيةً من أمامي وضفائرها تمس الأرض من خلف ردائها، مشت تبحثُ مُجددًا عن ثوبٍ من حرير، فرآها هشام بن المُغيرة، كان يُشبهه، يُشبه إساف طويلًا كنخلة، بوجهه ابتسامةٌ دائمة، لكن خيامه مليئة بالنساء والجواري، وهي ليست ككل النساء والجواري، سأل نفسه كيف لمثلها الرضا بشيخٍ كابن جدعان؟ كيف لمثلها وطء الأرض بقدمين دون أن يكون له جناح؟!

***

سار خلفها، وطلب منها الزواج فامتنعت عن الإجابة، أحبته، ربما أحبته، هي نفسها لم تعلم أبغضًا في ابن جدعان أم حُبًا فيه، لكنها كانت تتذكره في كُل ليلةٍ لا يقدر فيها ابن جُدعان على إرضائها، كانت تتذكره في كل مرة تعود فيها نوقه من الشام مُحملة بالحرير ويبعث لها من يقول: «جاء خصيصًا إليكِ».

كانت تأتيني كل ليلة وتقول: «زوجيني هشامًا».

***

عرفت قريشٌ كلها بمن فيهم الشيخ الذي استسلم لضعف لياليه، ومشى خلفها مُتخفيًا في أسمالٍ كأسماله القديمة، حتى سمعها وهي تحت قدميَّ هامسة: «يا نائلة، أريد الطلاق».

قال ابن جدعان: «سأطلقك، لكن لن تتزوجي ابن المُغيرة إلا بشروط، أن تذبحي مئة ناقة عند إساف ونائلة، وأن تنسجي ثوبًا بامتداد الصفا للمروة، وأن تطوفي عاريةً حول الكعبة».

***

ضحك ابن المُغيرة لما سمع قوله، ووفى عنها ذبح النوق أمامي، ونسجت نساء ابن المُغيرة الثوب، ولم يتبقَّ غير أن تنتظر الليل.

***

أُخلي المسجد وخلعت ثيابها، وأحاطت جسدها بشعرها، لكنها سارت منحنية عرجاء، لم يستطع ابن المُغيرة منع العيون المُتلصصة، ولم ترَ أحدًا ينظر إليها رغم كل العيون وكل النجوم، وتزوجها ابن المُغيرة في نفس الليلة.

مرت الأيامُ عليهما باردة، كلما لامسها شعر أن قريشًا كلها رأتها، شعر أن كل عينٍ أخذت من جمالها شبرًا ولم يبقَ له غير لحمٍ بارد، سأل نفسه: «أهذي هي ضُباعة؟».

***

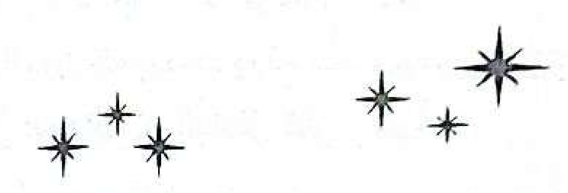
أنجب منها ولدًا، لكن الأيام ما زالت باردة، سأل نفسه مُجددًا: «أهذي التي أحببتها وجئت بحرير الشام لجلدها؟».

***

لم يدم السؤال طويلًا فطلقها، في نفس اليوم الذي مات فيه ابن جُدعان.

ضباعة، البدر شققه الزمن

«الحكاية الأخيرة لنائلة»



قالت نائلة الجُرهمية:

بقيت ضباعة بعدها عجوزًا، تشقق وجهها بخيوط الزمان، تعد السنين كما أَعُدها، كل الأيام متشابهة، حتى قال لها ابنها يومًا: «سأهاجر إلى يثرب مع النبي محمد».

***

انتشر الدين الجديد وهاجر النبي محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، عبد المطلب الذي حفر زمزم من عدم، صار حفيده نبيًا، نبيٌ يدعو الناس إلى أن يكفروا بي، يدعو الناس إلى أن يؤمنوا برب إبراهيم، ظننت الناس نسيته، ظننت الناس قد نسيت طريق السماء ولم تعرف غير طريقي، كل الناس عرفت وأنا بقيت بتمثالي وحدي أنتظر الانهدام.

***

هاجرت ضباعة خلف ابنها، لم تعد الأيام متشابهة، صارت جزيرة العرب في لونٍ جديد غريب، وما زادها غرابة أن ابنها دخل عليها ذات يومٍ ذاهلًا فرحًا، وقال: «يُريد النبي أن يتزوجك». قالت هادئة: «أو في رسول الله إذن؟».

لكنها كانت تشك، كيف يتزوجها رسول الله بعد كل هذا؟ قالت: يا رب رضيت العجز والوحدة.

***

لم يُتم النبي زواجها كما أحست، وبقيت وحيدةً مثلي حتى نهاية عمرها، حين عادت خلف النبي، لتراه بعينيها، مُمسكًا فأسه يوم فتح مكة، مُتجهًا نحو البيت الحرام، رأته حين وقف أمام جفنة ابن جُدعان، سمعت زوجته

تسأله: «إن ابن جدعان كان يطعم الطعام، ويقري الضيف، فهل ينفعه ذلك يوم القيامة؟».

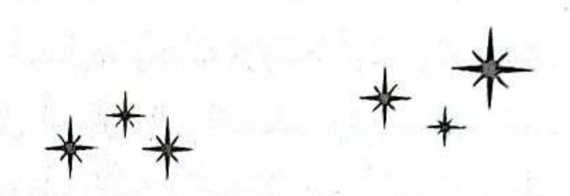
فقال: «**لا، إنه لم يقل يومًا رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين**»[1].

قبل أن يصيح في غضبٍ جعل الكون كله يرتعد، ورفع فأسه وهوى فوق رأسي قائلًا: «**قُل جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقًا**».

وخرجتُ من تمثالي كما تراني الآن، عجوزًا شمطاء، لكني فرحت، فرحتُ لأني الآن أراه، أشم رائحته، قد جاءني إساف بعد أن انهدم تمثاله، وسأعود معه كما كنت كبدر الكعبة، عيناي كالكوكب، وأنفي كتماثيل الفاو، أو مروةٍ منحوتة، كأن الريح تُجملها كلما لامستها. وشعري، إن خلعت لباسي ألبسني، وسأصعد معه إلى السماء وسأترك هذي الأرض، وسنترك الحارث فيها هائمًا وحده، ليحمل وزر كل من تبعه، تُرى هل تصعد روحنا إلى السماء أم نتيه مع الحارث ملعونين؟

(1) عن عائشة أم المؤمنين.. صحيح مسلم رقم 214.

نسيلُ الروح



قال خادم امرئ القيس بن حُجر:

صحبته مُنذُ زمنٍ وقت هروبه من الحيرة وصحبته وسط كؤوس الخمر ونهود النساء، وحكايات العشق التي لا تنتهي والقوة التي جعلته يرفع سيفه ضد السماء، وصحبته بعد أن دارت عليه الأيام، أنا وعمرو بن قميئة، هناك بصحراء الشمال حيث لا أبٌ ولا حبيبٌ ولا عيال.

***

كانت السهول مُخيفة، ولم تتوقف السيول مُذ ثلاثة ليال، صعدنا الجبال لنحتمي، صرنا أقرب إلى النجوم، لو نزلنا سهلًا فلن نمنع هلاكنا المُحقق، الهلاكُ الذي لاحقنا مُذ تركنا الحيرة مُذ خمس عشرة سنة، كيف تمضي كل هذي السنين ولا يتركنا الهلاك؟

***

أتذكر يوم تركنا الحيرة جيدًا، وقفنا بقلب الليل عند الفرات بعد أن هرب جده ملك الحيرة المهزوم إلى ديار كلب، كان السحاب يُغطي كل شيءٍ في السماء ولم يكن هناك نورٌ سوى مشعل عمرو بن هند، نظر امرؤ القيس يومها إلى الحيرة كأنه يودعها، وشكر عمرًا ثم نزل الماء صامتًا ونزلنا خلفه، لم أكن أعرف عمرو، لكني تعجبت إذ عرفتُ أنه ابن ملك الحيرة المنتصر، ابن ماء السماء، كيف لابنِ ملكٍ منتصر أن يساند ابن ملكٍ مهزومٍ على الهروب، ما أعجب الأيام!

يومها عبرنا النهر، دُرنا من خلف الجبال والحمم والأرض الغريبة حتى عدنا ديار كلب، وما إن نزلنا الديار حتى هجمت جنود ابنْ ماء السماء مُجددًا.

لن أطيل في حكي ما جرى، كل ما جرى يُبكيك، أصيب بالقروح، تساقطت روحه كُل يومٍ كأنما يموت ببطء، ثارت القبائل على أبيه، وقتلوه، هجرته حبيباته، ولعنوه، وقفت كُل النجوم بوجهه وقالت: «الثأر يا صاحب الثأر».

رفع سيفه ضد الهواء، جمع كل أنصاره، أوجعته قروحه، هُزم مرة، ومرة، ومرة. أوجعته قروحه مُجددًا، وقل أنصاره إلى النصف، رفع سيفه ضد الصخر، لم يستطع رفعه للهواء، لم يأخذ ثأره، هتفت النجوم مُجددًا: «الثأر يا صاحب الثأر».

قُلت له: «لا ثأر، كفاك تسعى إلى هلاك نفسك». نظر إلى قروحه، وأشار إلى أنصاره وقال: «ولو أنَما أسعَى لأدَنى معيشةٍ، كفاني -ولم أطلبْ- قليلٌ من المالِ.. ولكنَما أسعَى لمجدٍ مؤثَّلٍ، وقد يدركُ المجدَ المؤثَّلَ أمثالي».

هجم على قاتلي أبيه مُجددًا، هُزم مُجددًا ومُجددًا، وأوجعته قروحه حتى لم يعد يرفع سيفه، نظر حوله فلم يجد أحدًا غيري وعمرو بن قميئة، كيف لابن مَلكٍ أن يفقد قوته! كيف لابن ملكٍ أن تتبدل به الحال ولا يهنأ بالعيش ولو قليله!

***

لم يُصدق أن الجميع غادره، لم يُصدق أنه صار وحيدًا. لم يبكِ، وساندناه ليركب فرسه، وقال بصوتٍ حاول فيه تقليد أيام قوته: «سنتجه إلى ملك الروم».

ملك الروم، مَلك الروم سيساندك وحيدًا! أفق يا امرأ القيس، أنت الآن وحيد، لكنه سار نحو الشمال بلا أبٍ ولا حبيبٍ ولا عيال.

ظل هادئًا طوال الطريق، كان ينظر إلى النجوم ويُطرق، ينظر حوله ويبتسم. أشار مرة إلى نجمةٍ وقال: «تُشبه فاطم بنت عُمير».

كدنا نبكي، لم نعلم لِمَ تبعناه بطريقٍ لا نهايةَ لها، لكنه يرى ما لا نرى، ووثقنا بما يراه.

عندما وصلنا بين الدخول وحومل وقف فجأةً وقال: «قفا نبكي».

لكنه لم يبكِ، وظل واقفًا كأن شيئًا يتحرك أمام عينيه، كُل الزمان تحرك أمام عينيه، وهبط الليل علينا وهو على وقوفه، جلس وسطنا ونظر إلى النجمة

التي أشار إليها وظل يُنشد زمانه الماضي بصوتٍ قوي، كأنه يزعق في الجبال أو النجمة، أنشد أيام صحته، كيف كان يدور على النساء، كيف كان محبوب النجوم، كيف كان وكان وكان، لكن صوته ضعف فجأة، ووقف كأنه لا يرانا ونظر إلى النجمة بعينها وقال:

«أفاطِمَ مَهْلًا بَعْضَ هَذَا التَدَلُّلِ وإنْ كُنْتِ قَدْ أزمَعْتِ صَرْمِي فَأَجْمِلِي.
وإنْ تك قد ساءتكِ مني خَليقَةٌ فسُلي ثيابي مـن ثيابِـكِ تَنْسُـلِ.
أغَرَكِ مِنِي أنَ حُبَّـكِ قَاتِلِـــي وأنكِ مَهْمَا تَأْمُرِي القَلْبَ يَفْعَلِ؟».

بكينا حينها على حاله، وظل يُنشد طوال الليل حتى ظهر الصباح ورجعتُ وعمرو إلى الجنوب، وتركناه وحيدًا ناحية الشمال بلا أب ولا حبيب ولا عيال.

ما معنى الندم؟



قال درع لُقمان بن عاد:

أنا درعٌ حجري خفيف، نحتتني لُقمان بن عاد مُنذ مئات السنين بيديه من جبال الجنوب الطائرة، أنا آخر ما تبقى من هذي الجبال، آخر ما تبقى من مدينة إرم التي لم يُخلق مثلها في البلاد، رحل عني امرؤ القيس، وتركني مع سيوفه وماله عند السموأل بحصنه المنيع، لكني ضجرت الدنيا، ولن أُرفع للسماء حتى تمتلئ الدائرة الثالثة بالدم، هكذا قال لُقمان يوم نحتتني ورسم فوقي ثلاث دوائر، وفي كل دائرةٍ حكاية.

***



حكاية الدائرة الأولى..

الأيام تمر حتى وإن مشت متعثرة كنسرٍ وليد، ولن يمنع الأجل ملكٌ أو صعلوك، ولن يعيش بشرٌ فوق ما عاش لُقمان بن عاد، حكيم اليمن وأقوى من سار على الأرض بقدمين كأعمدة الحديد.

آهٍ على لُقمان، عاش ملكًا حكيمًا ومات وحيدًا جوار نسره لُبد، بعد أن نسيه الناس ونسوا مُلكه، لماذا ينسى الناس ملوكهم الأحياء؟ لماذا تصير الملوك آلهةً حين تموت فقط؟!

***

رأى لُقمان كل شيءٍ أمام عينيه، جوار نسوره السبعة، رأى اليمن أصفر وهو يتعلم المشي، وشق بأصابعه المتشققة قنوات الماء فيه، ورأى اليمن أخضر عندما حملوه فوق أكتافهم كملكٍ جديد، كان أول ملكٍ ذا يدين مُتشققتين، وكان أول ملكٍ يرى اليمن مُذهبًا حول يديه اللتين صارتا ناعمتين، ولم يُمهله الزمان أن يرى اليمن أسود بعد أن ضعف بصره، وانحنى جذعه، وصار يقضي اليوم فوق الجبل جوار نسره الباقي لُبد، يشم السدر ويستقبل ريح البحر.

***

كنت سأمتنع عن حكاية ما جرى للقمان، لولا أمرني بنفسه. كان ينتظر الموت في كهفه العلوي فوق الجبل الطائر، هو من قال لي: «قُل للناس يا درعي الجبلي، قال لُقمان بن عاد عن نفسه، ما أتعسه، طلب من ربه أن يعيش قدر عُمر سبعة نسور، ما يُفيد العُمر يا درعي، ما يفيد؟».

***

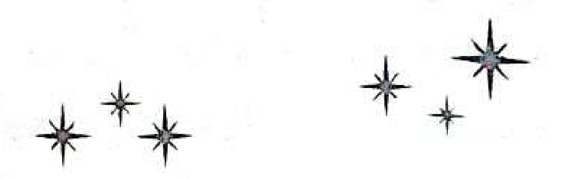
أتذكر يوم نحتتني، رأيته في تلك الليلة الباردة، يُشعل النار، ثم قطع غُصن سدرٍ وأفحمه، ثم رسم فوقي ثلاث دوائر سوداء، ومد منها خطوطًا إلى أطرافي، وكتب على ظهري «يا مالك الدرع المُدمم، كي لا تندم، املأ دائرته بالدم» ثم تلا صلواتٍ غريبة وهو يمسحني بظهر كفه المتشققة، ثم قال بعدما أغمض عينيه: «أودعت فيك يا درعي، كل علمي وندمي، أودعت فيك معنى الألم والندم، يا رب، بحق ما أطلت عمري، مد بصيرتي».

بعدها زال البرد فجأة، واحترقت السدرة، واهتز الجبل حتى كاد ينخلع، ورأيته يبكي، ويبكي كأن به ألمًا لم يستطع دفعه، ثم أمسكني ونظر إلى الدائرة وقال: «حان وقت الدائرة الأولى، قُل للناس يا درعي، لقمان لم يعد إلى قصر الملك رغم استطاعته، قُل للناس يا درعي، حبس لُقمان نفسه في كهفه فوق الجبل، قُل للناس، خير الناس من منع نفسه عن هواها وإن هوى، قُل لهم، لُقمان لم يندم يومًا، لم يندم يومًا».

***

حينها، ربط لقمان النسر من جناحيه بحبلٍ طويل، فأمسك طرف الحبل ثم رمى النسر في السماء، حاول النسر فرد جناحيه فلم يستطع، وهوى لُبد على صخور الجبل المُسننة.

وقع النسر ميتًا تحت ضوء القمر الشحيح، وسط بركة من الدم الغزير الذي لا يناسب حجمه، وسحبه لقمان على الجبل راسمًا خطًا أحمر من الدم، وجلس لُقمان حينها مُبتسمًا، ثم وضع يده في دم النسر الأحمر، ولوَّن الدائرة الأولى به، ثم مسح دموعه وأوصاني بألا أنسى الحكاية، ومات لُقمان ورُفع الجبل للسماء.



حكاية الدائرة الثانية.

الأيام تمر حتى وإن مشت مُتعثرة كشارب خمر، ولن يمنع الأجلَ قيسٌ أو سيف عمرو، ولن يموتَ ملكٌ قبل موت امرئ القيس بن حُجر، أصغر أبناء الملك حُجرِ المقتول، وحامل دمه الوحيد.

***

بقيت بموضع جبل لقمان الطائر، حتى أيام سيل العرم وانهيار سد مأرب، رأيت قبائل اليمن تترك الأرض التي كانت خضراء بين يدي لُقمان، تركوها بعد أن جفت، هم من نزعوا منها بركة السماء.

كانوا يمرون كل يومٍ أفواجًا، لكن أحدًا لم يلتفت إلا بعد سنين من تركي، وجدني جد امرئ القيس فأخذني، وظللت أورَّث حتى وقعت بيد امرئ القيس نفسه.

***

عاش امرؤ القيس مُتخبطًا بين الصعاليك وبين أبيه، بين النساء والشعر وبين مُلك كندة والحيرة، وربما الشام أيضًا، أذكر يوم وفاة جده، وقف يومها منكسرًا، كانت عيناه تبحثان عن مخبأ من عينَيْ جده الجافتين، كانتا تشبهان الأموات، لا تظنه يبكي، حتى وهو على فراش موته، نظر الجد إليه وقال: «أشم رائحة سدر، وهذا الدرع لن يأخذه غيرك، الفاو[1] تحت أقدامك يا بني، أنت حامي القصور الصُفر وواجد المساليك الخُضر تحت رمال كندة، ستُعيد الحيرة إلينا وستقتل المنذر بن ماء السماء[2] بيديك، ستقتل الحارث بن أبي

---

(1) الفاو: عاصمة مملكة كندة.

(2) المنذر بن ماء السماء: أحد ملوك مملكة الحيرة.

شمرٍ[1] بيديك، ستكون ملك الحيرة والشام الأوحد، وتُعيد مجد اليمن وتزيح الرمل عن إرم، لكن قبل أن تحارب حرب مُلكك العظيم، املأ دائرة الدرع بالدمِ، فلا يصيبك الندم كما أصابني، وتأمن اللعنة التي أخرجتنا من الحيرة مُقَتّلين».

***

أمسكني امرؤ القيس بين يديه، أبصر الدائرة الحمراء والدائرتين الآخرتين، ذُهل دون سبب، وحملني على ذراعه اليسرى، قبل أن يشهق جده ويموت.

حزن يومها وعاد إلى شُرب الخمر، ترك المنذر يُطارد أباه، ويُعصّي القبائل أمام رجليه، وظل يُطيل في شرب الخمر بذراعه اليُمنى، ويحمل الدرع باليسرى، حتى دخل عليه رسولٌ باكٍ وقال: «قتل بنو أسدٍ أباك وصرت ملكًا وصاحب ثأرٍ يا صاحب الدرع».

التفت حوله، نظر إلى إناء الخمر في يده، لعنه ولعن أباه وخلع حُلته الحريرية، وقام يحمل درعه، وأمسك بيمناه سيفه، وجمع كل من مر عليه وكل فُرسان كندة، سنعيد مجد الأجداد يا رجال، سنبني الفاو من جديد، سنُفني بني أسدٍ، لنطاردهم باسم كندة.

***

دفعت عنه ألف ضربة سيفٍ ومثلهم من رماحٍ وأسهم، حميته باسم لقمان، وأحببت الثأر في عينيه، والعز في جنبيه، كان يقول الشعر في المساء فألين له، ويهجم على بني أسدٍ في الصباح فأشتد، وظل يُطاردهم، حتى مل منه فرسانه.

- ماذا بعد يا امرأ القيس؟
- حتى نفنيهم ويكون الشام لنا.
- وبعد؟
- نفنيهم ويكون الشام لنا.

رفعوا السيوف حوله، وأخذوا من الشام جزءًا، رفع سيفه منتصرًا باليمنى، ووضعني فوق صدره باليسرى، وبعث إلى اليمن ليحضُر أخواه، تعجب

---

(1) الحارث بن أبي شمر: ملك مملكة الغساسنة.

جيشه، له إخوة؟ أين كانوا كل هذي الحروب؟ أين كانوا من ثأر أبيه ومن مُلك كندة، أين كانوا وسط دماء القوم ووسط سيوف امرئ القيس، لكنهم ذُهلوا أكثر، يوم وقف امرؤ القيس خاطبًا فيهم، أن وليت أخويَّ على المُدن المفتوحة، ونحن؟ ونحن يا امرأ القيس؟ حاربنا معك، ثم تسعى إلى من؟ إلى أخويك الجبانين؟ ماذا بعد يا امرأ القيس؟

«نفنيهم ويكون الشام لنا». قال الجُند والقادة: «لتذهب وحدك».

لأول مرةٍ خالفوه، لأول مرةٍ وجد نفسه وحيدًا، حتى المُدن المفتوحة سقطت مُجددًا بيد الحارث بن أبي شمر.

***

الحارث بن أبي شمرٍ سيقتلك يا امرأ القيس، اهرب! جاءه الصوت من كل مكان، من كل نحل الجبال وزهور الوادي، من كل أفعى كان فرسه يدهسها بعد أن انصرف الجميع عنه، اهرب يا امرأ القيس، اهرب!

لكنه وقف فجأة، نظر إلى الخلف وعاد، ثم جمع كل دروعه وسيوفه، وذهب إلى السموأل وترك كل شيءٍ عنده بالحصن، كي لا يستطيع الحارث بن أبي شمرٍ أن يصل إلى ماله.

***

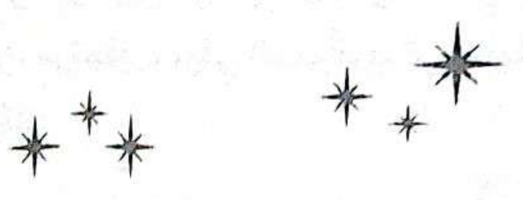
يومها وجَّه فرسه تجاه بلاد الروم، تجاه قيصر، قال له السموأل قبل أن يغادر: «لتعِش معي في رغدٍ من العيش وكفاك سعيًا وراء ثأر أبيك وملكه».

فأمسكني بين يديه كيوم جده، وتحول وجهه كأنه رأى جده أمامه، وقال: «وَلَكِنَما أَسعى لِمَجدٍ مُؤَثَّلٍ، وَقَد يُدرِكُ المَجدَ المُؤَثَّلَ أَمثالي».

ثم أعطى السموأل إياي وقال: «إن حدث لي شيء؛ فاملأ دائرة الدرع الأخيرة بالدم، كي لا يصيبك الندم، أو تصيبك لعنته، هكذا أخبرني جدي».

ثم قام وذبح فرسًا من أفراسه، وملأ الدائرة الثانية بالدم وقال: «والله لا أندم على ما فعلت، وَلَكِنَّما أَسعى لِمَجدٍ مُؤَثَّلٍ، وَقَد يُدرِكُ المَجدَ المُؤَثَّلَ أَمْثَالِي».

وخرج من حصن السموأل تجاه ملك الروم، لكن العام لم يمر، إلا وقد سمعنا بموته، أندم امرؤ القيس؟



حكاية الدائرة الثالثة:

بقيت عند السموأل بعد وفاة امرئ القيس، لكن الحارث بن أبي شمرٍ قد حاصر الحصن، يريد كل سيوف امرئ القيس الهندية، كل دروعه الصخرية، كل ماله ومال جده.

***

قيل بأن السموأل غادر، يهودي غادر، وإن كان يقول الشعر ويصف البرد ويُخبر كيف تُخرج الزهور روائحها، وكيف تهيم الجن في آذان الناس، وكيف يمنع نفسه من التأثر بهم. كان الوضع جديدًا عليه، الأمن والعيال والمال، كل شيءٍ صار مُهددًا، الحصن مُحاصر، والناس خائفون، وابنه كان خارج الحصن يصطاد فأسره الحارث بن أبي شمر، والمال، كل المال لا قيمة له.

***

حاول أن يسوس الحارث، قال شعرًا يمدح شمائله، يمدح أجداده الغساسنة، أبناء عم امرئ القيس، لكنه لم يتراجع. إما تركة امرئ القيس وإما أن يقتل ابنه.

***

تراجع عن أشعاره، حك ذقنه الطويل، وبكى، رأى الناس في الحصن دموعه لأول مرة، ورأوا خطواته بين باب الحصن وبيني.

أرسل إليه الحارث مرة أخرى، وأخرى، حتى قال له في آخر مرة: «لن أرسل مُجددًا»، وقال السموأل: «الأمانة وإن متنا من الجوع».

***

أرسل الحارث رسالة أخرى، لم تكن شفهية، كان صندوقًا، فتحه السموأل ليجد فيه رأس ابنه ورسالة تقول «ضيعت ابنك».

بكت النسوة وسمع الحارث بكاء الحصن كله، تضعضعت الأرض تحت قدميه، وتمالك السموأل نفسه، فغمس يده في دم ابنه، ولوَّن الدائرة الأخيرة بالدم، وحُملت طائرًا إلى السماء، قبل أن أثير الريح، فينكفئ كل جنود الحارث على وجوههم، وولوا من حول الحصن، مرتجفين، وبقي السموأل يبكي بقية حياته، لكنه لم يندم يومًا، لم يندم يومًا.



هزيمة الملوك



قال خادم الحارث بن أبي شمر:

حين حاصر الحارث بن أبي شمر حصن السموأل، كان الأمرُ مُعقدًا؛ الحصنُ مُغلقٌ من جميع منافذه، ولو طارت الخيول فلن تبلغ نصف الجدار، ولو أُرسلت السهام لما تخطت أشجار اليهود حول البيوت داخل المدينة، ولذا فقد اهتز الحصن حوله إذ وقعت الأخبار فوق رأسه من كل صوبٍ تقول بأن السموأل خزن في الحصن ما يكفي من الطعام لأعوام.

***

كان الأمرُ مُحرجًا أكثر من كونه صعبًا، كيف لملكٍ مثله، أن يهزم ملكًا آخر كامرئ القيس، ولا يظفر منه لا بسيفٍ ولا قوس، كيف تكون الهزيمة دون أدرع حجرية وسيوفٍ هندية، كيف تكون الهزيمة بمطاردةٍ لا تنتهي في صحراء تأكل المُطارِد والمُطارَد، لعن امرأ القيس في نفسه، من أين جاء بتلك الفكرة، لماذا اختار حصن السموأل دون كل بلاد العرب ليترك متاعه عنده؟ لِمَ ذهب إلى ملك الروم عاريًا؟

***

ظل الحارث وابناه على أعتاب الحصن، حتى صاح الجنود ذاتَ فجرٍ كمن صاد أرنبًا، قائلين للملك وابنيه، قد أمسكنا بابن السموأل وهو مقمر.. تحول الليل فجأة، واتسع فمُ الحارثِ حتى بانت أسنانه، ووضع يديه على كتفَيْ ابنيه كأنه يستمد منهما قوة ذراعيه اللتين كتب بهما رسالته إلى السموأل، والتي جاء فيها: «متاع امرئ القيس، أو ابنك».

تخيلَ السموأل يرتجف كحية فرغ سمها في صيد فأر، كيف سيبقي على أمانة صاحبه والسيف تحت رقبة ابنه، لن يضحي بابنه على كل حال.

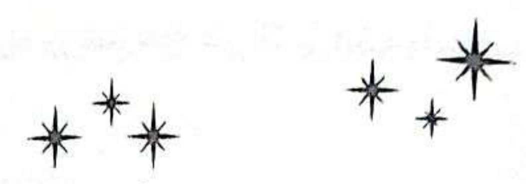
***

رد السموأل رافضًا، اهتز الحصار مُجددًا، وضع يديه على كتفَيْ ابنيه، وكتب رسالة، ورسالة، ورسالة، ورفضها السموأل كلها، حتى كتب رسالته الأخيرة دون أن يمس ابنيه، أرسل الرسالة ومعها صندوق، به رأس ابن السموأل، كانت الرسالة تقول: «ضيعت ابنك».

***

ملَّ الحارثُ الحصارَ، لكن الأمل بقي مع الدم الجاف موضع نحر ابن السموأل، كان ينظر إليه وإلى ابنيه كأن بهما مُبررًا لوجوده هنا، على عتبة ذلك الحصن وكُل حصون العرب، لا ينحر هذا الدمَ غير ملكٍ يسجد الكُل أمامه، وبينما ينظر إلى الدم الذي جف سمع من كل صوبٍ خيوله، كاد الصهيل أن يهدم عليه خيمته، وخرجَ فإذا بريحٍ تعصف بأغلب خيام الجُند، وصار الجند عراة إلا من الدروع، وعلت الريح أكثر، حتى كانت ترمي ضعاف الأجساد في الهواء كالتراب.

لم تهدأ الريح حتى صاح في الجميع أن يتجهزوا لفك الحصار، ففككنا الحصار، وتركنا الحصن خلفنا، ورأيت السموأل حينها فوق جدار الحصن يبكي.



قال خادم الحارث بن أبي شمر:

بعد أعوام، لم يكف الحارثُ عن مطامعه في أن يصير ملك العرب الوحيد، وفي أن تكون بلاد غسان مُناطحة لقيصر الروم نفسه الذي احتمى به امرؤ القيس. كان يقوم إلى الحرب واضعًا يديه على كتفَيْ ابنيه، يقود المعارك بين ابنيه، ولم يتبقَ له غير الحيرة، مملكة الحيرة التي لم يبن مثلها أجداده، لماذا -وهو ملك العرب الوحيد- لم يبنِ له أجداده قصرًا كالخورنق الكبير، قصر ملوك الحيرة.

***

وذات يوم، جاءته أنباءٌ عاجلة: «لقد سافر ملك الحيرة إلى المدائن وترك الحيرة خلفه دون ملك».

ضحك الحارث وبان ناباه، وأمر فتجهزت جيوشه قبل أن يقوم من مجلسه. سار بجيوشه يقصد قصر الخورنق، لن يرضى إلا بالخورنق ولو اقتلعت الريح ابنيه.

دخل المدينة التي لم تكن مستعدة لا لدفعه ولا لقتاله، استباح شوارعها وقتل من فيها، وقامت حربٌ أخرى، بينه وبين ملك الحيرة المُنذر بن ماء السماء الذي عاد من سفره أسرع من الريح.

***

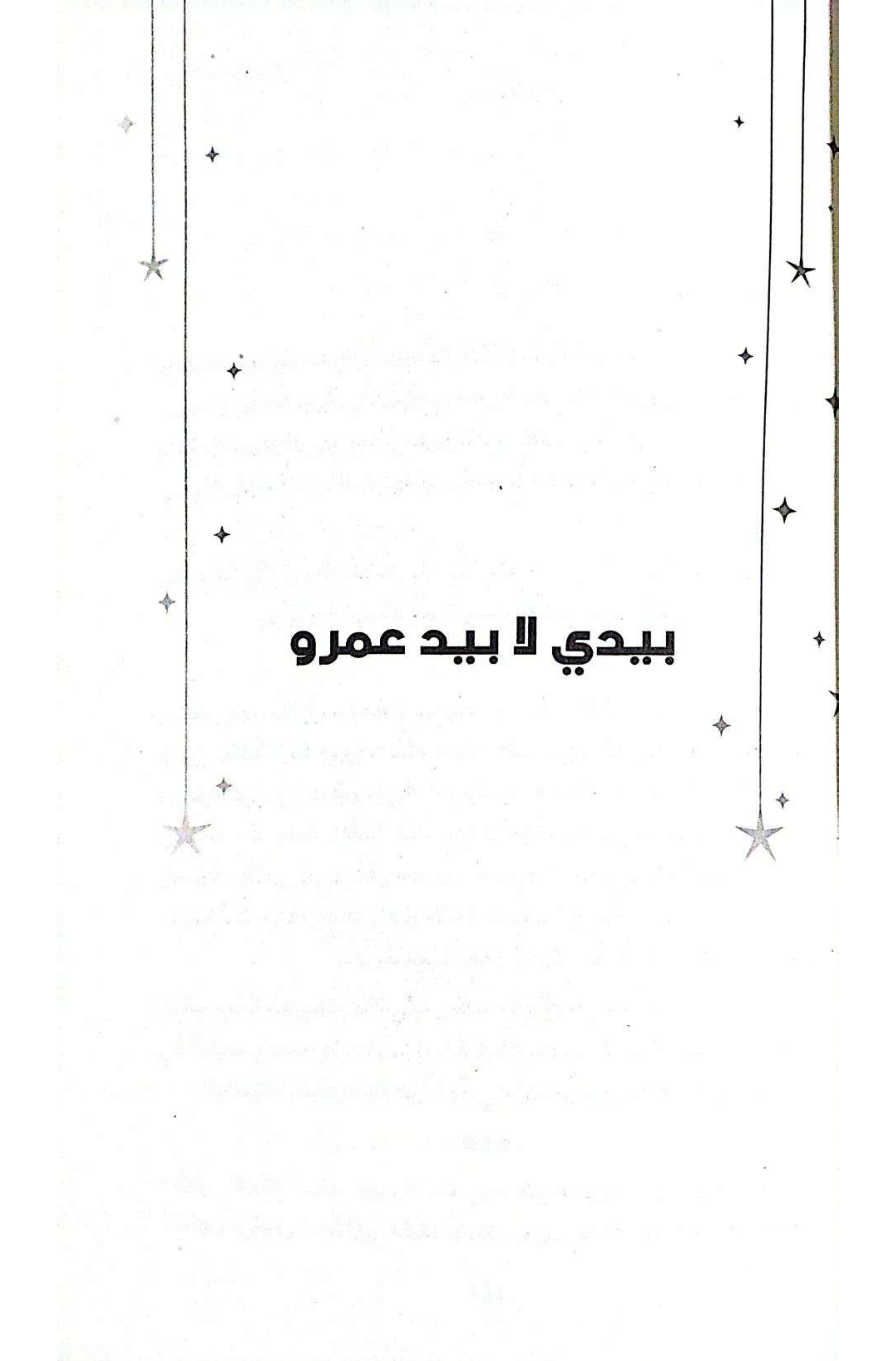
تماسك جيش الحيرة، عاد فرتب صفوفه، كل الصفوف كانت بها فجوات، لكنهم ملؤوها بأبناء المقتولين، ملؤوها بنسائهم الباكيات في الخلف، اشتعلت المعارك مُجددًا، متكافئة هذي المرة.

وقف ملك الحيرة الذي عاد يُلملم أبناءه وثوبه، أمام الحارث. نظر إلى عينيه وقال: «لا نريد الحرب، قدِّم ابنيك ليبارزا ابنيَّ، على أن تنتهي الحرب على من انتصرا».

ضحك الحارث كمن يضمن الخلود، ووضع يديه على كتفَيْ ابنيه وأعطاهما سيفين من سيوفه.

***

تقدم ابنا الحارث ثابتين، وأرسل ملك الحيرة رجلين من جيشه غير ابنيه يعرف قوتهما، وبدأت المبارزة، جُرح ابن الحارث الأكبر في خده، وكُسرت ساق الثاني، لم تطل المبارزة فقُتل ابنا الحارث، وهجم جيش ملك الحيرة فجأة، وفر الحارث بجيشه. عاد مهزومًا مكسورًا، لم يستطع أن يُكمل قتالًا دون ابنيه، كانت كتفاه كصخرةٍ مكسورة، وقلبه بلا دم، وما إن وصل بلاده، حتى سبقته رسالة من ملك الحيرة، لم تكن رسالة شفهية، كانت صندوقًا به رأس ابنيه، ورسالة تقول: «ضيعت ابنيك».



بيدي لا بيد عمرو



قال صانع القفص الذهبي:

كان الوقت ليلًا، حتى النجوم غطاها السحاب والبرد، ولم يبق بضاحية تَدْمُر الجنوبية سواي وعازف قيثارة روماني، ضل كُل طرق الحرير والحرب، فجلس جواري يدندن، حتى سكت فجأة، ووضع أذنه على الأرض مثل كلاب الرومان، ثم نظر إلى كل الاتجاهات وهمس بذعر: «هناك ستةُ رجال قادمون نحو البيت».

فتحت نافذة الخوص الوحيدة، فلم أجد على امتداد المدى نارًا، لكنه أعاد كلمته البتراء وتركني قاصدًا الشمال نحو قصر الأميرة المنكوب.

***

الأميرة، آهٍ على أميرتنا الزباء، لم تنعم بيومٍ جميل، رأيتها بعينيَّ هاتين عندما مات الملك زوجها، كانت مثل عذراء مات حبيبها قبل الزفاف بيوم، ذابلة كأشجار الحر، لكننا تفاجأنا في اليوم التالي إذ وقفت في شرفة القصر، وأمرت أهل تدمر جميعًا أن يأتوا، كانت تشبه الملك، الملك نفسه، حتى حاجباها انعقدا وغطى لباس الحرب الأسود صدرها. تهامس الكُل، أتتحمل الملكة لباس الحرب الحديدي؟ فرفعت الملكة يدها وقالت: «اليوم نبدأ الحرب يا أهل تدمر، اليوم ثورة على كل مُستعبد، اليوم حُرية».

صحت مع الجميع حتى تخيلنا العصافير التي كانت تشبهها، تصيح مثلنا، لكنها لم تعد تُشبه العصافير، ولم تشبه الغربان أيضًا، لم نستطع تخيلها في المستقبل، وحشًا ككل جلوس الكراسي، أم الزباء الرحيمة كما عهدناها.

***

بدأت الحرب، وانتصرت الزباء على ملك الحيرة جذيمة الأبرش وقتلته بنفسها، وطاردت ابن أخته عمرو وكادت تقتله، وقاتلت الرومان، وجاءتنا

الغنائم وفاضت الأموال، حتى رأينا قائد الرومان نفسه يهادنها، هدنةً رأيناها بأنفسنا في شرفة قصرها التي لونتها بالأحمر، وقفنا فرأينا قائد الرومان، كان يجلس تحت قدميها، كأنها أصرت أن تُرينا ذُله. ورأينا، رأينا كل الخير، لم نعش بسلامٍ مثلما عشنا معها، لكن وفي يومٍ آخر، انتشرت الأبواق في كل المدينة تدعو الناس إلى ملاقاة الزباء، لم تكن تُشبه الملك وقتها، كانت تشبه ملك الرومان نفسه، لم نفهم، أهي الزباء فعلًا؟!

***

رفعت الزباء يدها مُجددًا، خافت العصافير ووقعت الشمس وحل الظلام، وغاصت الزباء في احمرار شرفتها وقالت: «اليوم نحارب الرومان مُجددًا».

تهامس الناس: «والهدنة، لمَ الحرب يا ملكة الرحمة؟».

أشارت الزباء إلى حرسها، فقبضوا على واحد، ثم اثنين ثم عشرة ثم ألف، حتى سكت الجميع ولم تُجب الزباء وانسحبت من الشرفة رافعةً رأسها.

***

سمعنا أخبار الجيش، انتصارٌ على الرومان بالساحل، الزباء تُسيطر على كل سوريا، الجيش يدخل سيناء، جيش الزباء يقتل الرومان ويقذفهم بالبحر، جيش الزباء يسيطر على الدلتا، سقطت الإسكندرية أهم مدن الرومان بالمنطقة، سقطت الزباء نفسها بأيدي أورليان... ماذا؟! سقطت الزباء، الزباء الملكة؟! التي وصلت إلى الإسكندرية؟!

هام الناس في الشوارع كالنجوم، أرواحًا ميتة، وهزيمة الزباء كليلٍ يحوط، لم نفهم وقتها أنحزن عليها أم نقتلها قبل أورليان؟

***

وقتها، كان مقبوضًا عليها، وتُرك قصرها طللًا، وأنا جلست وحدي بعد أن رحل الروماني المجنون بقيثارته، لكني سمعتُ دبيبًا يقتربُ مني فعلًا. سكنت، فلن يكونَ مصيري أسوأ من الملكة، لن يكون مصيري أسوأ من تدمر، حاضرة الدنيا.

كُسر الباب، وأنا ما زلت جالسًا، ابتسمت أمام الرجال الستة، كانوا يشبهون الزباء قبل هجومها الأخير، كانوا يشبهون الشياطين التي تطارد الروماني صاحب القيثارة، كانوا يُشبهون صخور البتراء التي صارت قصورًا.

أخذوني حتى وقفت أمام أورليان نفسه، لم يبدُ قويًّا كي يهزم الزباء، لكنه هزمها، هزمها لغرورها على ما يبدو، لكن الزباء كانت رحيمة، وكان أورليان رحيمًا، طلب مني أن أصنع لها قفصًا من ذهب، حتى يعرضها بعاصمة الرومان، فيشاهدها الناس كلهم. صرختُ في داخلي: «الزباء تُعرض أمام الناس كمهزومة؟! الزباء ملكتنا الرحيمة؟! لا، لا، الزباء ملكتنا المغرورة، تستحق، لا تستحق، تستحق، لا تستحق، لا تستحق».

جاءتني ضربةٌ قوية من الخلف، وأمامي الذهب، فصنعت قفصًا كبيرًا كبيرًا، حتى لا تشعر فيه بالضيق أبدًا، وجعلت قضبانه ضخمة، حتى لا يرى الناس في الشوارع عينيها وهما مكسورتان، أعلم أنها لن تكون مكسورة.

***

في يوم العرض، وقفت الزباء على باب القفص، حتى إذا تقدم الحراس ليدفعوها، أخرجت زجاجةً صغيرةً من شعرها وشربتها، وقالت: «بيدي لا بيد أورليان».

وسقطت الزباء ميتة.

***

الآن، وبعد سنين من موت الزباء، إن سألت رجلًا بالشارع: من قتلها؟ لن يقول قتلها الرومان، سيقول قتلها أخوها العربي ملك الحيرة عمرو بن عدي، حتى إنهم قالوا: «قالت الزباء قبل موتها: «بيدي لا بيد عمرو»»، وجعلوها مثلًا. صدَّق الناس، قتلها العرب فعلًا ولم يقتلها العدو الروماني.

يوم سقط حصان
«ذي نواس»



قالت الغيداء جارية الملك:

يومها، هرب الكُل، ودخل الأحباش المدينة كفئران مأرب، ولم يبقَ مع الملك غير فرسه الشهباء وأنا، حتى سيفه الأسود انكسر. وقتها كانت الشمسُ قد انحسرت عن قصر غمدان، ووقف مُرتديًا لباس العامة ناظرًا إليه، لم أدرِ عمَّ يبحث، لو رأوه لقتلوه، لو رأوا فرسه لقتلوه، لو رأوا سيفه المكسور، لأصلحوه وقتلوه به.

***

نظر إلى جانب القصر الفيروزي، أشار إلى ركنه الأيمن وقال: «هنا أمرت بقتل نصارى نجران، لم يمنعني الوزير، لم يمنعني الإله، لم يمنعني ضعفهم من صب النار عليهم، جاؤوني بعظام حبسة بنت حيان فخلعت من القصر حجرًا، وهويت عليها حتى تفتتت».

***

دار بحصانه، فوقف أمام جانب القصر الذهبي، وقال: «هُنا، جمعت كل تجار اليمن، سألتهم عن هداياهم، فصفقوا جميعًا لغلمانهم، فدخلوا بصناديق كل شيء، الذهب والحناء والبخور واللبان والتوابل، حتى الجواري، رحلوا جميعهم إلاكِ، لماذا لم ترحلي؟!».

***

تباطأ الحصان عندما دار نحو جنب القصر الفضي، لكنه أشار نحو الطابق التاسع وقال: «وهنا انفردنا للمرة الأولى، لم أكن أدري أحرامٌ أن أتزوج كافرة، أم حرامٌ أن أترك حورية، قبَّلتك يوم السبت، أكلت اللحم معك، تمردت على كل شيءٍ يومها، وتمرد على اليوم كل شيء».

***

وعندما دار للوجه الأخير، خاف الحصان من اللون الأسود، لكنه لكزه فانتبه، وأخفض الحصان رأسه، كأنه رأى شيئًا بعيدًا. قال: «هُنا ركبت هذا الحصان لأول مرة، وهنا أرسلت الجيش ليقف عند باب المندب، ليصد الأحباش، ليحمي الكُرسي والإله، هنا أمرت ببناء معبدي الأخير، ليحمينا الإله. هُنا، أخبروني بأننا هُزمنا».

***

حينها، أطال الوقوف ولم يبكِ، وبكيت أنا والحصان، ولم نتوقف عن البكاء إلا عندما انتشر الأحباش حولنا أكثر، فسرنا معه تجاه الطريق الرملي بظهر المدينة. لم يكن لهذا الطريق إلا مقصد واحد، باب المندب، مكان قدوم الأحباش أنفسهم، كان مهلكةً لا محالة، وفي منتصف الطريق وتحت شجرة اللبان التي زرعها بنفسه عندما أحرق نجران، كان هناك فارس ضخم، يُشبهه قبل الهزيمة، الهزيمة التي شعرت بها للمرة الأولى، عندما سلمني إليه، ومشى وحيدًا ولم ينظر إلى الخلف ولو مرة.

***

لم يكن يعلم أني تبعته، تركت الفارس وتبعته، لم يكن يعلم أن في تركي إياه موتًا، واتباعي له رغم الموت أمل، لم يكن يعلم شيئًا، سوى أني جارية، وإن كانت مميزة، إلا أني وتحت الانكسار لا شيء، لا شيء.

***

وصل إلى البحر ولم يكن في السماء غير نجمة وباقي ضوء الشفق. سكت الكُل، الرياح والغربان وحتى هدير البحر، ضربت المياه حافر الحصان فخاف، لكنه لكزه بجنبه فثبت. كان وقتها مهيبًا لا يشبه نفسه طوال الطريق، كان يُشبه سيفًا أفقدته الأجساد لمعانه، يُشبه جبلًا صَدِعًا.

ضربت الأمواج بطن الحصان، فخاف مُجددًا، فلكزه مرتين، كان يُشبه حينها عشتار نفسها.

رفع أخيرًا عصاه وضرب حصانه بقوة، حتى انكفأ والحصان تحت الماء، ولم يظهرا قط، واختفى باقي ضوء الشفق.



بعضُ حكايا الحيرة..



قال الأستاذ عبد الملك:

رأيتُ نفسي فيما يرى النائم، جوار سورٍ عالٍ ووسطِ عتمةٍ لم أرَ منها شيئًا غير القُمرات المتناثرة المضاءة بالمشاعل فوق السور. بدا السور ضخمًا، كأنه يحيط مدينةً كبيرة، رأيت رأس رجلٍ من إحدى القمرات ممسكًا سيفًا، فناديته: «بأيِّ مكانٍ نحن يا رجل؟».

فنظر إليَّ متعجبًا، وقال: «وكيف دخلت المدينة وأنت لا تعرفها؟».

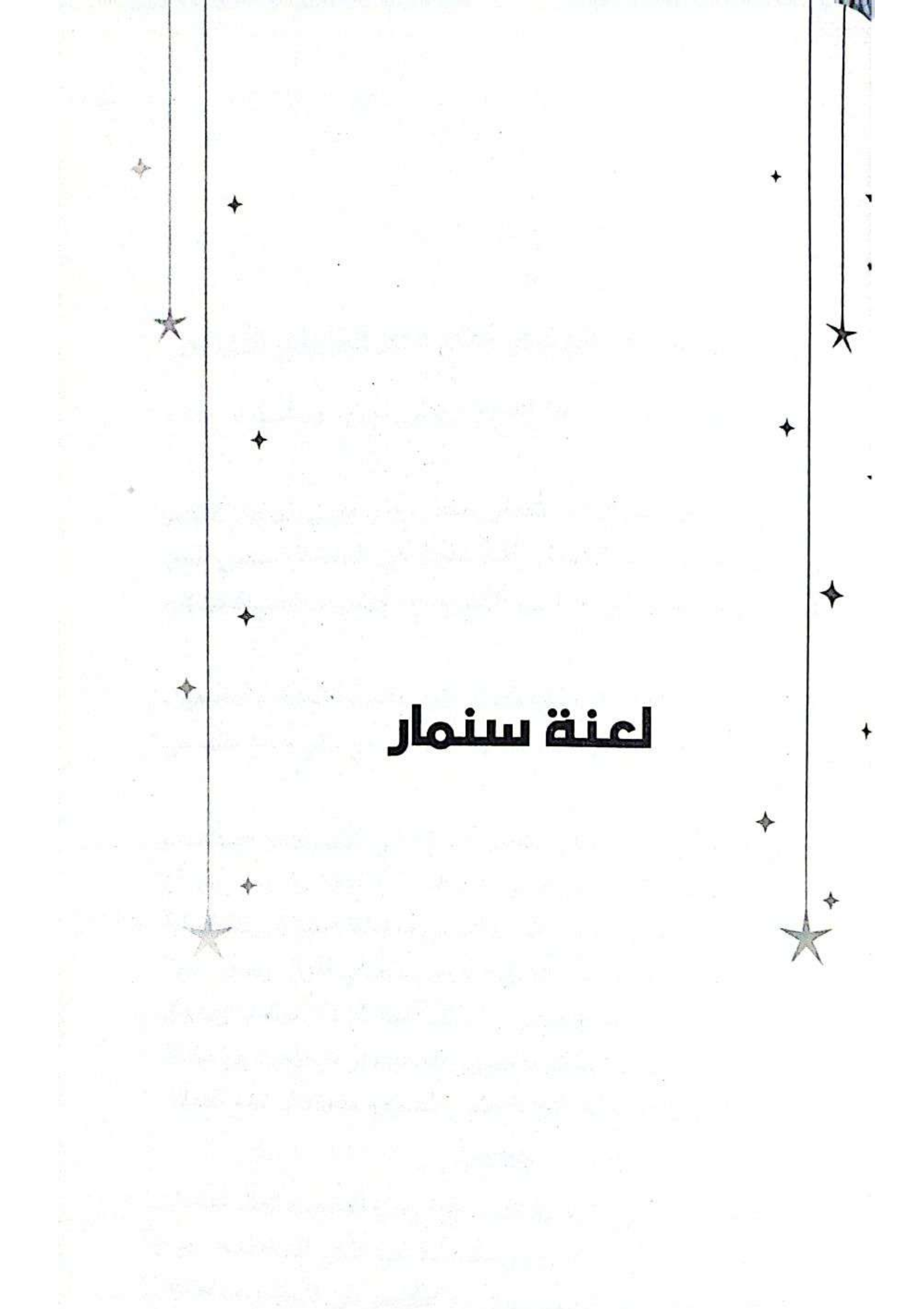
لم أدرِ بمَ أجيبه فمشيت جوار السور لعلِّي أصلُ إلى عمران فأستطيع سؤال الناس هناك، مشيت فبدت أمامي بوابةٌ كبيرة، لكنها مُغلقة، حاولت قراءةَ أي حروفٍ عليها لكنني فشلت وسط الظلام، وفجأةً سمعتُ صوت دبيب خيولٍ مسرعةٍ من خلفي فتنحيت جانبًا حتى بدا فرسانٌ يمسكون المشاعل وعلى أعينهم الخوف، نزل أحدهم ففتح البوابة، واندفعوا خارج المدينة، لم أعلم ألاحظني منهم أحدٌ أم لا، لكنهم هرولوا كالهاربين خارج السور ناحية سواد ممتد كأنه صحراء، تعجبت منهم، فعدت وقد قررتُ أن أدخل قلب المدينة تاركًا السور فرأيتُ جنودًا أكثر يأتون من بعيد على ضوء المشاعل أيضًا، فتنحيت عن البوابة مرةً أخرى مسرعًا، لكن أحدهم لاحظني فجاء بفرسه نحوي ووقف أمامي، انعكست عليه الشُعلةُ التي يحملها فبدا ضخمًا مهيبًا، فانكمشت على نفسي، سألني عن اتجاه الذين خرجوا، فأجبت بنفس ذهولي وخوفي: «من هنا».

خرجوا خلفهم حتى غابوا عن بصري، فسألت نفسي مجددًا بأيِّ مكانٍ أنا، حتى تسرب ضوءٌ خافت كأنه الفجر، وما زلت جالسًا مكاني حتى ظهرت الشمس على الظلام.

حاولت تذكر ما أعرفه عن الحيرة فيما قرأت، وكان أول شيءٍ تذكرته، هو قصر الخورنق الكبير، سألت الناس كيف أذهب إليه، دلوني والحزن يملأ أعينهم، كان كل الناس يحملون أغراضهم راحلين، كل المدينة كانت تستعد للرحيل، كان الأمر غريبًا. لكني ذهبت إلى القصر.

***

بدا القصر من بعيدٍ خلف سوره العالي، وصلت إحدى بوابات السور، فبدا قصر الخورنق كاملًا مهيبًا، له صدرٌ به مدخلٌ عظيم، وجانبان كلاهما نوافذ غرف، وبين القصر والسور حدائق بها الفواكه والأزهار، من كل الألوان والأصناف، لكني لم أجد أحدًا هناك قط، غير ثلاث، **حجرٌ مُهشم أمام المدخل، وحصانٌ باكٍ ورجلٌ يلملم الأخشاب المكسورة في القصر.** سألتهم عن القصر وملوكه، عن الحيرة والناس، لماذا يتركون المدينة؟ أين الجند والملوك؟ فحكوا لي حكاية ملوك الحيرة مُذ بُني الخورنق، كيف كانوا وكيف انتهى ملكهم.



لعنة سنمار



الحكاية الأولى للحجر المُهشم، أمام قصر الخورنق الأعظم:

حكاياتي كثيرة، مُنذ بُني هذا القصر وحتى اليوم، وسأحكيك حكاية الحيرة كلها.

في البدء كان مُهندس الملك النُعمان سنمار، بنى فوقي كل هذا القصر العظيم الذي تختفي خلفه الشمس، كنتُ حجرًا من السماء، وضعني الجن في قصر سُليمان، مات النبي جواري، كانت عصاه فوقي، وحملني الجن إلى سنمار.

أراد أن يبني قصرًا ليس له مثيل، قصرًا يكون مقصد الشعراء والمادحين، وأن يُجسد الحُكم في بناء، ويجعل قصره كقصور إرم التي سمع عنها في الحكايات.

شقني سنمار إلى نصفين، بنى القصر فوق نصفي الأول ووضعه بمنتصف القصر بالضبط، كان كل القصر فوقي، الغُرف والجناحين والبهو، وبعد أن فرغ من البناء، وقف جوار نصفي الآخر ولمسني مُغمضًا عينيه كعرافة البوابة الجنوبية، ثم نحت بيديه كُرسيًّا. ألصق الكُرسي بنصفي الأول، وعدت حجرًا مكتملًا، نصفي لا يراه أحد، ونصفي يراه كل أحد، ثم قال سنمار وما زال مُغمضًا عينيه: «أودعتك سر الحُكم يا حجري السعيد، إن تزحزحت من مكانك انهار القصر كله فوق أصحابه، أنت الحُكم يا قصري، ودونك لا تنفع القوة».

***

أين السعادة؟ ما معنى السعادة يا سنمار؟ لماذا أحضرت الملك النُعمان ذا اليد الحمراء أمامي، وأخبرته بسري، قُلت له: «يا ملكي السعيد، قد بنيت قصرك العظيم كله فوق هذا الحجر، فوق هذا الكُرسي، إن تزحزح من مكانه، انهار كل شيء».

ضحك النُعمان، كيف له وهو ملك العرب أن يكون قصره كله فوق حجر؟! أن يكون حُكمه كُله فوق حجر؟!

قتلك يا سنمار، رماك من فوق القصر الذي بنيته كي لا يعلم أحدٌ سر القصر غيره، وسمعتك تصرخ قبل أن يصطدم رأسك بالأرض، أأنا حجرك السعيد حقًا؟!



الحكاية الثانية للحجر المُهشم:

جلس الملك النعمان ذا اليد الحمراء فوقي، فوق الكُرسي. ينام فوقي، يأكل فوقي، بل وضاجع زوجته فوقي. كان يخاف، يخاف أن يعرف أحدٌ السر، يخاف من الهواء أن يكون قد سمعك يا سنمار، يخاف أن يُحرك الكُرسي أحد فيراني، يخاف ألّا يراه أحد ملك العرب الأوحد.

كان يصرخ في الوفود: «أيخضع الناس لأحدٍ غيري؟».

كانوا يخافون منه، يخافون من قوته وقصره الذي يحجب الشمس، من يملك قصرًا مثل الخورنق ومُلكًا أعظم من الحيرة؟ كل من في الحيرة كان يخضع له، إلا عرافة البوابة الجنوبية التي قالت له: «لا تفرح يا صاحب الحجر، واحذر فوق جبال حلب، يغلبون مَن قلبه فَجَر».

***

كانت امرأة عجوزًا، أضعف من العنكبوت، لها ثلاث نقاطٍ فوق حاجبها الأيمن، يجعلونها كالمخبولة، ولذا فلم يرفع عليها سيفًا ولا كفًّا، لكنه صاح في جنوده أن احبسوها بالقصر، وبعث جواسيسه إلى الشام ليخبروه بأمر جبال حلب.

***

جاء الجواسيس بالأمر العظيم: فوق جبال حلب قديسٌ يحج الناس إليه، اسمه سمعان، تهاجر إليه الوفود من أهل الحيرة والجزيرة.

قال النُعمان بنفس صوته الذي يُسمع الشام: «أيخضع الناس لأحدٍ غيري؟».

***

رفع سيفه، وخرج ليقتل القديس وأتباعه، نظر وراءه فخاف، خاف أن يعرف أحدٌ السر، خاف أن يزحزحني أحد، فجاء بولده وعشرة من حرسه الأقوياء وأخرج العرافة من محبسها، ليحرسوني.

***

قالت العرافة، وقد نظرت إلى ابن الملك: «لا يبلغ النبي بشر، لا يهنأ صاحب الحجر، لا يدوم وإن انتصر». قال ابن الملك ضاحكًا: «أتقصدين أبي؟»، فلم تُجب وأخذت بيده وأشارت إلى النجوم، ثم قالت بصوتٍ مكتوم: «تضحك اليوم، لكنك لن تكون هنا يوم بكائها».

***

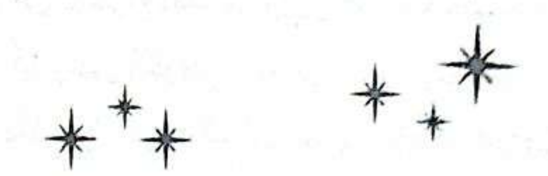
رجع النعمان بعد أن قتل أتباع القديس سمعان، أفناهم، وعاد فنام فوقي. كان ينام مُرتجفًا، يستيقظ وسط الليل مئة مرة. كان يصرخ في كل مرة: «لن أحاربهم مُجددًا، لن أحاربهم والله».

لم يعد يستقبل الوفود، ولم يضاجع زوجته مُذ رجع، ولم يتوقف عن ارتجافه، ذابت قوته أمام ضعف القديس وأتباعه، كان يرفع عليهم السيف فيبتسمون إليه منتظرين الشهادة في سبيل المسيح، وفي إحدى الليالي جاءه القديس سمعان في المنام. رأيته، وجهه أبيض طويل، كجبال الشَمال، وأمر شمَّاسيه فأبرحوا النُعمان ضربًا.

***

استيقظ النُعمان مُرتجفًا، استيقظ هربًا، وأمسك فأسًا ضخمةً وحاول أن يُهشمني، أن يهدم القصر ويُفني المُلك، حاول أن يزحزحني من مكاني، لكنه لم يستطع، لم يستطع، وخلع ملابسه كلها، وارتدى صوفًا باليًا وخرج من القصر صارخًا: «ما عند الله خير، ما عند الله خير».

وترك الخورنق يومها، وساح في الأرض تاركًا قوته والكُرسي، ولم يرجع أبدًا إلى القصر، وظللت تضحك يومها يا سنمار.



الحكاية الثالثة للحجر المُهشم:

ساح الملك النُعمان في الأرض، لم يره إنسان، وخلا قصر الخورنق من الملوك. كيف يخلو القصر من ملوكه؟ كيف يبقى الكُرسي دون من يعتليه؟ كانت الحيرة كُلها تسأل، أسيرجع الملك أم يجلس ابنه مكانه؟!

رأيتك مُجددًا يا سنمار بعدها في منام ابن الملك، همست في أذنه: «اجلس على الكُرسي، ساح أبوك في الأرض ولن يرجع، أنت الحُكم، وبيدك الخورنق سر الحُكم، كل قويٍّ خارج الخورنق ضعيف مهما بلغت قوته».

***

بقي ملكًا لأنه أدرك ضعفه أمام الخورنق، رأى أباه رغم انتصاره في الحرب ضعيفًا، سائحًا في الأرض كالصعاليك، كيف يكون الملك ملكًا دون قصره؟ لذا لم تأته في المنام مُجددًا يا سنمار، ولم تأت أحدًا من أبناء الملك الجديد، كانوا مثله، كلهم يعرف قدر الخورنق ورجاله، يعرفون أن الشعراء لن يمدحوهم لو تركوا الخورنق. تركت الحيرة بأيديهم، حتى جاء المُنذر بن ماء السماء.

***

كان المُنذر غبيًّا، يخال القوة في ذراعيه لا في سر الحجر الذي بُني الحُكم فوقه، أتيته في المنام يا سنمار، رأيتك تحمل فوق رأسك حجرًا دائريًّا، مُتغير اللون ككل عهود الملوك، قُلت له: «لو تحرك الكُرسي من مكانه، لو اهتز الحجر، سينهار ملكك كله».

***

فزع المنذر من نومه، تلفَّت حوله كمن سار على وجهه عقرب، وظل يصرخ: «كاذب، كاذب، أنا القوة ولو انهدم الخورنق ألف مرة».

***

ظل المنذر يُفكر طوال اليوم، ولم يلتفت إلى القبائل التي وقفت أمامه تنتظر النصرة، ثم أمر خدمه بإحضار فأسٍ من صخر، ووقف جواري وزفر كأنه سيقتلع جبلًا من مكانه، حاول أن يكسرنِي، أن يكسر الكُرسي والحجر، نظر كل القصر يومها مُتعجبًا، ضرب ابنه عمرو كفًا بكف، وانصرفت القبائل عنه وهجاه الشعراء.

***

لم يهمس أحد، لم يتحرك الكُرسي، لم أظهر للناس، وترك المنذر قصر الخورنق وترك الحيرة كلها، لكنه سمع صهيل الخيول على أعتاب الحيرة، سمع سنابك خيول الحارث الكندي على أبواب قصره. جاءته كُل الأنباء، صار للحيرة ملكٌ جديد.

جمع جيشه، هرب القادة منه، كيف لا يهربون من ملكٍ يريد هدم الخورنق؟ كيف لا يهربون من ملكٍ يظن قوة ملكه في ذراعيه فقط؟ انتصر الحارث الكندي، وجلس فوقي حاكم جديد على الحيرة بدلًا منه، لماذا أراد المنذر كسري؟ كيف يكون الملك ملكًا دون قصره؟ ألم تُخبره يا سنمار؟! ألم تخبره أن الحُكم هو أنا؟ ألم تُخبره أن قوته مهما بلغت، ضعيفة؟

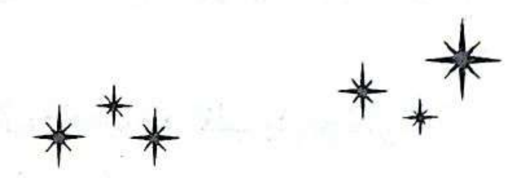
***

رأيتك مُجددًا يا سنمار، يوم تسلل المنذر وابنه عمرو إلى القصر ووقفا أمامي وسط الظلام وأقسما على ألَّا يُحركا الكُرسي ثانيةً، قالا: «نحن ضعيفان دون قوتك يا كُرسي الحُكم».

لم تتغير يومها عن آخر مرةٍ يا سنمار، يومها تركت المنذر وجئت ابنه عمرو في المنام وقُلت له: «ستعودان ملكين على الحيرة، لكن سيقتلك الكُرسي بعد أن يموت أبوك، سيقتلك شاعر».

***

انتصر المنذر وصار ملك الحيرة مُجددًا، عادت إليه قواته وشعراؤه، عاد ملك الخورنق، بل وطارد الحارث ونسله حتى وصلوا ديار كلبٍ البعيدة، لن يرجعوا إلى الحيرة ولو مات المُنذر ألف مرة، لكن ابنه عمرو ظل يبحث عن أعدائه الشُعراء، مَن مِن الشعراء سيقتله؟



الحكاية الرابعة للحجر المُهشم:

كان عمرو يسأل نفسه كل صباح، مَن مِن الشعراء سيقتلني؟ امرؤ القيس حفيد الحارث الكندي؟ لكنه صديقي، بل وأنا من هرَّبته من الحيرة ولم أقتله! كيف يخونني امرؤ القيس وقد أمنته؟

***

قرَّب منه الشعراء ليُصاحبهم، كان يخاف سيوفهم وألسنتهم، قرَّبهم في مجلسه، أغدق الأموال عليهم، وبقيت أنت يا سنمار تأتيه في المنام وتضحك منه.

***

مات المنذر وصار عمرو ملكًا، لكنه لم يهدأ فوقي، لماذا كان ينام طوال الليل مُرتجفًا، لماذا وضع سيف أبيه الأسود فوقي، فوق الكُرسي؟

مرت السنون وما زال السيف فوقي، وقلَّ ارتجاف عمرو، صار كل الشعراء أصحابه، وعاد لينظر في أمر القبائل مثل أبيه، واطمأن أن الكُرسي لن يتزحزح وإن بقيت آثار الفأس القديمة، جئته يا سنمار مُجددًا في المنام وقُلت ضاحكًا: «سيقتلك شاعر».

رجع فخاف، بان ارتجافه، بعث في السؤال عن امرئ القيس قالوا: «مات بالقروح عند ملك الروم».

***

اطمأن مُجددًا، ورجع فجلس فوق الكُرسي ونظر في أمور القبائل رافعًا رأسه، دنت كل القبائل تحته، مات الحارث ونسله، صار ملك العرب الأوحد

ولن يقتله أحد، ظن أنه أقوى منك يا سنمار، أقوى من الكُرسي، صاح في كل من في القصر بوجهٍ أحمر: «مَن مِن العرب تأنف أمه أن تخدم أمي؟».

رأيتك تضحك، تُقهقه، قالوا على استحياء: «عمرو بن كلثوم شاعر تغلب، أمه ليلى، ليلى بنت المُهلهل».

أمسك عمرو الكُرسي بيديه، وقال: «فلتأتِ بنو تغلب وفيهم ليلى».

***

انفض الجميع، ووقف عمرو أمامي، أحضر فأس أبيه الصخرية، وهوى على الكُرسي من نفس الموضع القديم، وقال: «أنا القوة لا أنت».

لم يتحرك الكُرسي، ولم أظهر لأحد، ولم ينم عمرو حتى جاء بنو تَغلب.

***

دخلت ليلى إلى جناح أم الملك عمرو، وجلس عمرو بن كلثومٍ جوار الملك، كان كل شيءٍ مُستقرًا حتى سمعنا صراخًا من جناح أم الملك، ورأينا ليلى صارخة: «وا ذلاه، وا ذل تغلب».

قام حينها ابنها عمرو بن كلثوم واندفع نحو الملك، أمسك رأسه، ورماه من فوق الكُرسي بسرعة، وأمسك السيف الأسود، فقطع رأس الملك. لماذا يا عمرو؟ أنت دون الكُرسي مقطوع الرأس.



الحكاية الأخيرة للحجر المُهشم:

مرت السنون، وجلس النُعمان الأخير فوقي أمام وفود القبائل، دميم الوجه قصيرًا، يُسامر الشعراء والشيوخ، دنا له الكُرسي كما لم يدنُ لملكٍ من ملوكِ الحيرة قبله، قرَّب منه وزيره، وأعلى النابغة الشاعر من موضع الكُرسي حتى قال فيه قصائد المدح، لكنك جئت النعمان في المنام كهلًا يا سنمار، تنحني إلى الأمام كأن روحك تُريد أن تموت فتنتهي اللعنة، وضعت يدك على كتفه وأخبرته السر مُجددًا، سري، سر الحجر الأعظم الذي بُنيت فوقه الحيرةُ كلها لا الخورنق وحده، قُلت له: «سيقتلك الحُب»، فنفى زوجته من القصر. قُلت: «سيقتلك الصاحب»، فقتل وزيره، وطرد النابغة من بلاطه. قُلت: «سيقتلك كسرى»، فأمسك الفأس الصخرية، وهوى فوقي كما فعل النُعمان السائح، قائلًا: «أنا أقوى من كسرى ومن الخورنق».

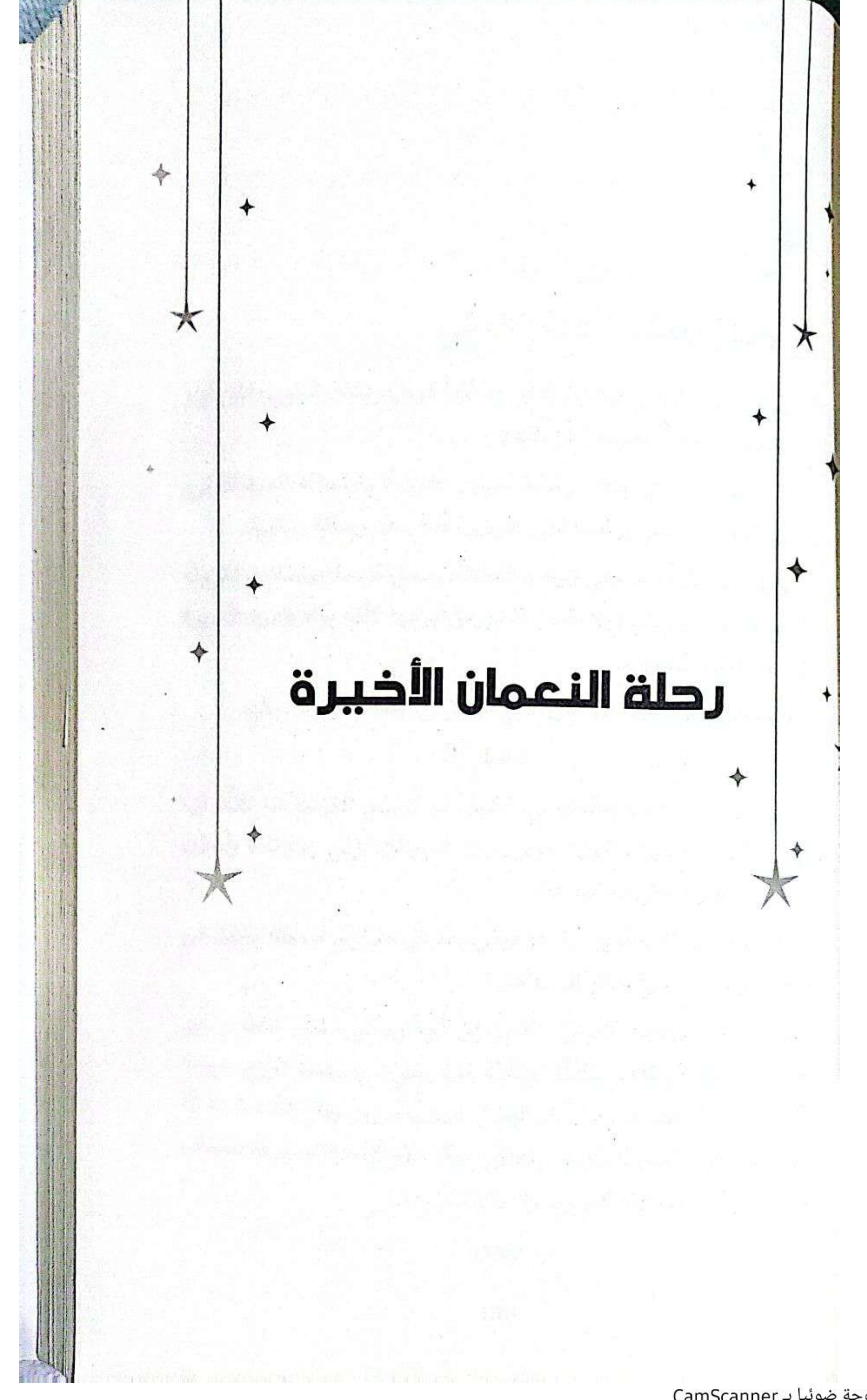
كسرني، كسر الكُرسي وبِنْتُ حينها أمامه كما وضعتني أيام النُعمان السائح يا سنمار.

***

أخرجني النُعمان بيديه من أرض القصر ولم يحدث شيء، رفع حينها النعمان يديه وظل يضحك، ظل يقهقه، أمر أن يوزع الذهب على كل مارٍّ على الخورنق، لم ينهدم القصر، لم ينهدم القصر، النعمان أقوى من القصر، أمر بإحضار كل الناس، وأمسك الفأس الصخرية مُجددًا، وهوى فوقي حتى تهشمت كما تراني الآن وأخذت الريح ترابي إلى كل مكان.

***

طرت بكل أرجاء الدنيا، رأيت عرافة البوابة الجنوبية تهيم بالصحراء تُناديك يا سنمار، ورأيت رجلًا ذا يدٍ حمراء يقف عند باب هذا القصر يبكي كما كانت كل النجوم تبكي، ورأيت النُعمان الأخير سائرًا على قدميه إلى كسرى تاركًا قوته والكُرسي، ولم تقم الحيرة بعده أبدًا.



رحلة النعمان الأخيرة



قال حصانُ الملك النُعمان الباكي:

أسمع الريح والموتى وحديث النفوس، أقرأ الرمل ودقات القلوب، لكن أيام وداع النُعمان كانت أصعب من أن تُفهم.

كان فوقي وقتَ أن جاءته رسالةَ كسرى، شعرتُ بارتجافه للمرة الأولى، النُعمان الذي قتل عشرين أسدًا فوق ظهري، خاف من رسالةٍ مكتوبة.

يومها جمع كل أهله، حتى زوجته الخائنة، وحمل كل ما استطاع من ثروته فوق نوقه الحُمر، وقف فوق قصر الخورنق يومها كأنه يراه للمرة الأخيرة وقال: «سيقتلني كسرى».

رأيته يبكي لأول مرة، النُعمان الذي قتل زوج ابنته ووزيره، يبكي.

***

خرج من باب الحيرة الجنوبي الكبير، لم تُصدق العرافة أنه النُعمان، رأيتها تكوي حاجبها وتقول: «ولى زمن النبوءات، ولى زماننا»، وأخذت تهرول بالصحراء حتى اختفت عنا.

كان النُعمان تائهًا، يُغير وضعه فوقي بعد كل صخرة. سمعته يبتهل إلى السماء، رأيته لأول مرةٍ ينظر إلى الأعلى.

بعد يومين، وصلنا الجبلين العظيمين أجأ وسلمى، نظر النُعمان إلى السماء وابتسم، ثم تقدم هادئًا لمُقابلة سيد طيء، هاجمتنا الريح حينها، وأظلم الليل فوق ظلامه، ومر أمام الهلال سحابٌ أسود، وظل النُعمان هادئًا، حتى دخلنا عليه. مُتجهمًا قال وحوله كل رجال القبيلة: «لولا صهرك، لقتلناك، فإنه لا حاجة لنا بمعاداة كسرى، ولا طاقة لنا به».

***

رجع النُعمان بنفس هدوئه، رأيت بعينيه كل القبائل التي وقفت أمام كُرسيه تطلب النُصرة، رأيته يُرسل الجيوش لإسكات مُعارضيه، رأيت النجوم ترسم أمام عينيه سيفًا وحربة، رأيته وسط كل ذلك غارقًا، ومن حوله الطريق صاخب، نسمع أصواتًا من كل مكانٍ حولنا، الضحك من فوق الجبال، وسيوف كسرى من خلفنا، والإبل، حتى الإبل نفرت منا.

***

مررنا على بني عبس، نزل عندهم فهدأت حركته فوقي، وهدأت الأصواتُ من حولنا، نزل عندهم على ضعفهم بعد الحرب مع شيبان، لا أظنه كان يُريد نصرتهم، كان يُريد الهُدنة، أكرموه، وقال له بني رواحة بن قطيمة بن عبس: «إن شئت قاتلنا معك»، نظر إليَّ وربتَ ظهري وقال بيأسٍ: «ما أحب أن أهلككم».

سمعت يومها أقدام النوق الحُمر التي أهداها إلى عنترة العبسي، رأيتها في عينيه، رأيتها في ابتسامته، رأيتها في خروجه الهادئ من حيهم، رأيتها في عدم ضجره من الأصوات التي تلقفتنا مُجددًا.

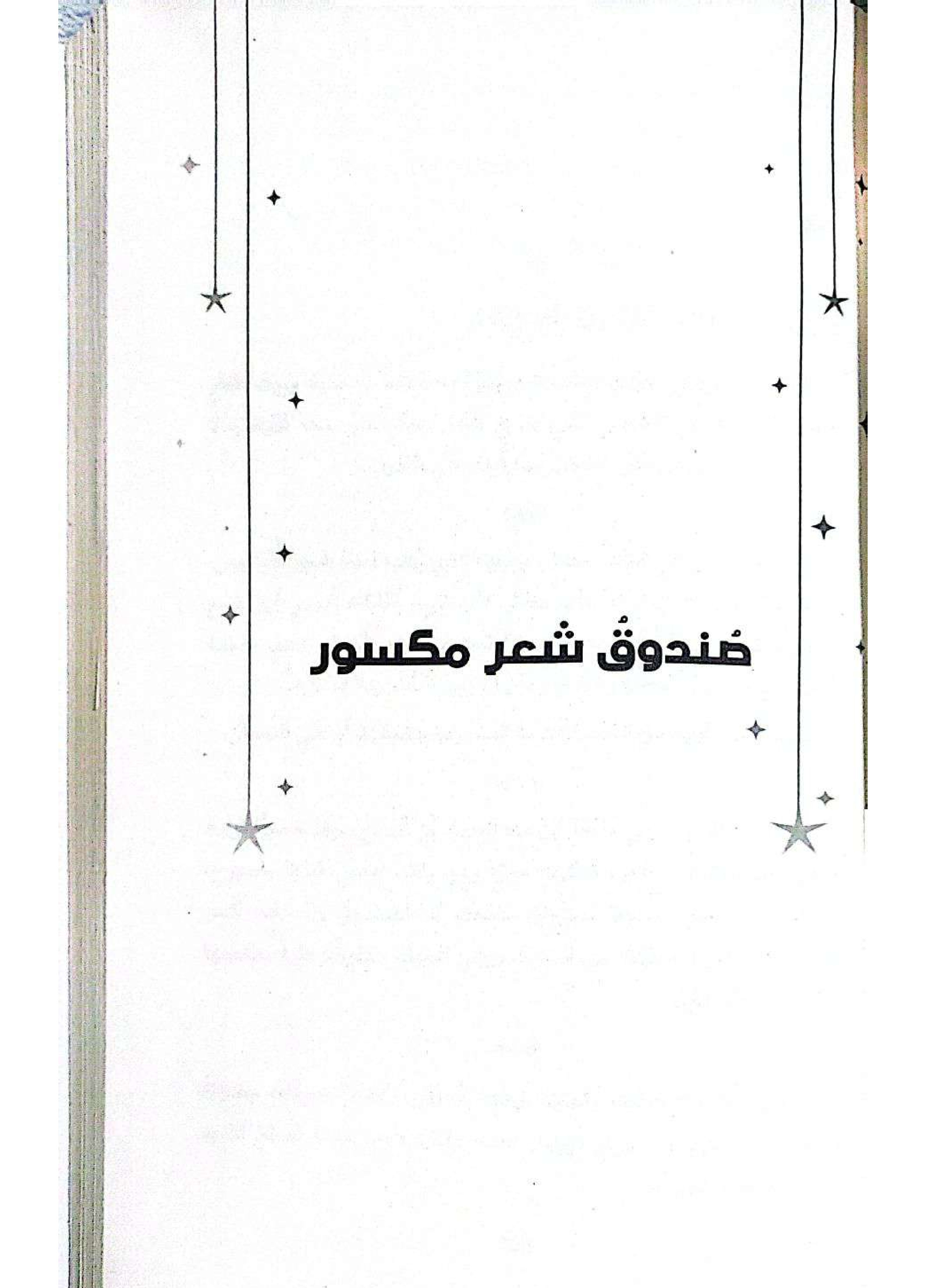
***

بدت أمامنا ديارُ بكر، وسكتت الأصوات من حولنا فجأة، وتنهد فشعرنا أن النصر جاء أخيرًا، نزلنا عندهم فلقينا هانئ بن مسعود الشيباني، سلم على النُعمان كأنه يضع عيناه بعينيه لأول مرة، رأيتُ في عينيه ضعفًا مُنقلبًا، جعله يبتسم بين الحين والحين، لكنه قال: «أنا مانعك مما أمنع نفسي وولدي وأهلي منه، لكنك مهلك نفسك ومهلكي». قال النعمان:

- وما ترى؟
- الموتُ نازلٌ بكل أحد، ولئن تموت كريمًا، خيرٌ من أن تتجرع الذل، فامضِ إلى كسرى، فإما صفح عنك فعُدت ملكًا عزيزًا، وإما أصابك، فالموتُ خيرٌ من أن يتلاعب بك صعاليك العرب.

أُغمضت عينا النُعمان هنا، لم يعد ينظر إلى السماء، حتى لمَّا خرج هانئ بن مسعود خر فوق ركبتيه، بكيت، وبكيت أكثر لما رحل النُعمان على قدميه إلى كسرى.

رحل النُعمان وتركنا عند سيد شيبان، ولم يمر الشهر حتى سمعنا بموته.



صُندوقُ شعر مكسور



قال حفيد بيت النجارين بالحيرة:

الأخشاب حرفتي، أصنع صندوقًا صغيرًا به قلادةٌ نحاسية وبيت شعرٍ لعاشقٍ وَلِه، وأصنع الكرسي الذي يتسع لأكبر حاكمٍ على وجه الأرض، لا تخونني الأدوات ويطاوعني الخشب كما تُطاوعني القلوب.

***

ذات يوم دخل عليَّ الملك النُعمان بوجهه الذي يُشبه لحاء شجر الأبانوس، مُتشققًا كأنه لا يذوق الماء، كأنه عطشٌ لأي شيءٍ يُقابله، أمرني أن أصنع صندوقًا كبيرًا كبيرًا، وأزخرفه بكل ما أُوتيت من فن، وأجمله بذهبٍ وفضة وأطحن بخورًا على جوانبه، قال لي: «إن لم يُبهر المُتجردة قتلتك».

كان نفسه الصندوق الذي خبأت به المتجردة عشيقها، آهٍ على النُعمان.

***

وفي يومٍ أقدم، أمرني ملكنا ابن ماء السماء أن أصنع سيفًا خشبيًا لولده عمرو، ضحكت أول الأمر، تذكرت عمرًا وهو يقف أمامي قبلها بأسبوع، منتظرًا أن أصنع صندوقًا لحبيبته، صنعت له الصندوق والسيف، كُسر الصندوق وطُردت حبيبته من الحيرة، وبقي السيف منقوشًا عليه «باسمها أقاتل»، آهٍ على الأيام.

***

جاءني أحد الصعاليك ونصف وجهه مُغطى بعمامةٍ سوداء، وصوته غريب، كأنه يهرب من جبالٍ تُهرول خلفه، وقال: «أريد حربةً تَصلح لصيد الغزلان والبشر أحيانًا».

قُلتُ مُتعجبًا: «حربةٌ خشبية؟»، قال: «نَعم، هربتُ من قبيلتي وسرقتهم وأطعمتُ أمثالي من الصعاليك، لكن قالت لي عرافة الجنوب: «ستُقتل بسلاحك»، فأردت أن يكون موتي رحيمًا».

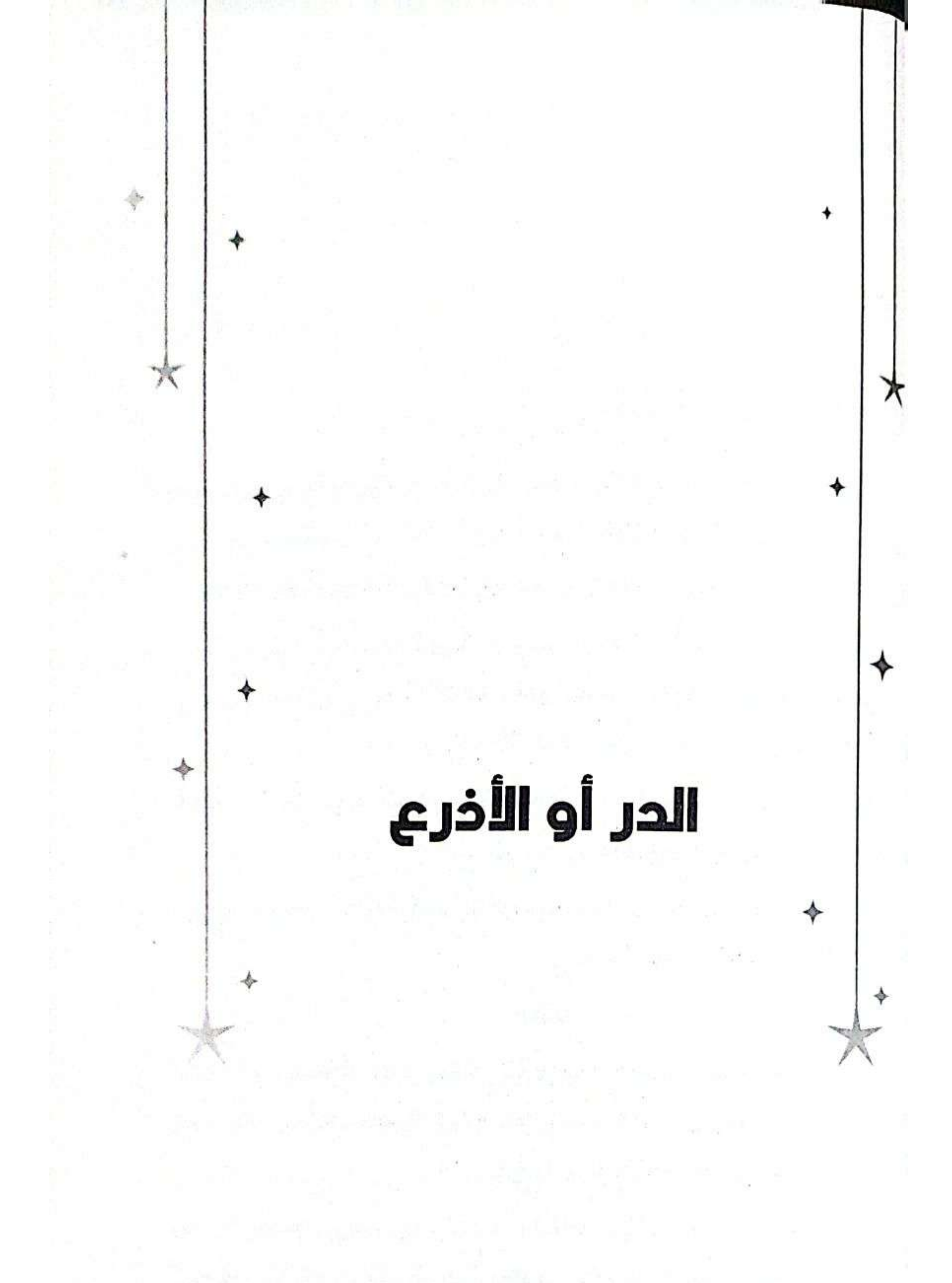
بعدها بيومين، رأيت الجنود يحملونه، ليرموه أمام قصر الخورنق وبقلبه الحربةُ الخشبية، قال الناس: «هو عشيق المُتجردة».

***

وفي يومٍ يُشبه جبال طيء، تظن أنه لا يمر أبدًا، بقيتُ مغمومًا أمام أخشابي قبلَ أن يأتي الرسول يطلبني لملاقاةِ الملك عمرو صاحب السيف الخشبي، دخلتُ القصر مغمومًا بلا سبب، وأمامي الملك على جانبيه وفود القبائل بينهم شاعر تغلب الشهير عمرو بن كلثوم، والملك عمرو جالسًا إلى كرسيه، وفوقه سيفان، سيف أبيه الأسود، وسيفه الخشبي القديم، أمرني أن أصنع كُرسيًّا أكبر، بالوقت الذي سمعنا فيه صراخًا من جناح أم الملك، تبينًّا الصوت فإذا بأم عمرو بن كلثوم تصيح: «وا ذلاه، وا ذل تغلب، يريدون إهانتنا يا عمرو».

فأمسك ابن كلثوم الملك عمرو من رأسه ورماه من فوق الكُرسي، والتقط السيف الأسود، فقتل الملك بسيف أبيه، ورمى عليه سيفه الخشبي.

قال الأستاذ عبد الملك: «وأفقت حينها من نومي».



الدر أو الأذرع



قال الأستاذ عبد الملك:

وجدت نفسي فيما يرى النائم مُجددًا، فوق فرسٍ أزرق، أمام سهلٍ ممتد وقفت الخيولُ على طرفه، منتظرة بدء السباق، تعرَّفت وسط الخيول على الحصان داحس والفرس الغبراء، ومن حولهم فُرسانٌ تخاف منهم الجبال.

بدأ السباقُ وصفق الكُل لداحس، الحصان الذي لا يُهزم أبدًا، لكن المفاجأة حدثت وفازت الغبراء بالسباق، حينها وقف حُذيفة الذبياني وابتسم في خُبثٍ قائلًا: «لنا الحقُ في حراسة قوافل الملك النعمان الآن».

حينها كان فارسٌ يُهرول من بعيد يسبقُ صوته بريق عينَيْ حُذيفة: «خيانة، خيانة، عرقلوا طريق داحس كي يُهزم».

حينها علت أصوات خروج السيوف، وقامت مناوشاتٌ بين عبسٍ وذبيان، قُتل على إثرها مالك بن زهير العبسي.

***

ركبتُ فرسي قاصدًا مدينة الحيرة لكي أخبر الملك النُعمان بما حدث، فقابلني بالطريق فارسٌ ضخم، يسوق أمامه نوق النعمان الحُمر، قُلت: «من أنت يا هذا؟ ومن أين جئت بكل هذي الإبل؟».

فقال بفخرٍ حاول فيه تقليد الملك: «أنا عنترة بن عمرو العبسي، وهذي نوق النعمان الحمر، أعطانيها يوم نعيمه»، قُلت وقد قفزت من فوق فرسي: «عبسي! لقد قُتل مالك بن زهير العبسي يا عنترة، غدرت به ذبيان»، غضب عنترة حتى صار فوران الدم يبين بين سواد وجهه، وترك الإبل وهرول بفرسه ليرى ما الخطب.

***

أكملتُ الطريق حتى فرغ الماء بجعبتي، فبحثتُ عن بئرٍ ودلني الأعراب على مكانٍ بين جبلي طيء، وصلتُ إلى هناك فإذا برجلٍ مهيب يرتدي الحرير، يقف عند البئر ساقيًا فرسه، فتقدمتُ ببطءٍ إذ استشعرتُ فيه الغدر، حتى إذ اقتربتُ منه، سمعته يقول بثقةٍ ولم يلتفت: «لِمَ تأخرت؟»، قُلتُ: «أتعرفني؟»، ضحك وقال: «أنت عدوي! أنا النابغةُ لا أتغير، والبشر لا يتغيرون، وكل زمانٍ يستعيضُ عن أشخاصه آخرين كأنهم هم هم».

قُلتُ وقد ضربت كفًا بكف: «النابغة الذبياني! لم تركت قومك في حربها وهربت؟». ضحك مجددًا بسخريةٍ وقال: «السياسيون لا يشاركون في الحرب، أنْ أدفع عن قومي بطش الحيرة بالسياسة ومصاحبة الملك، خيرٌ من المشاركةِ معهم. أن أضمن لهم تحالف بني أسدٍ بشعري، خيرٌ من أن أرمي أعداءهم، أفهمت شيئًا؟».

***

أغمضت عينيَّ لأفكر بكلامه ولما فتحتهما كان قد اختفى، حاولت أن أتبع آثار فرسه، فظهر رجلٌ فوق الجبل عن يميني وقال: «عُد إلى مكة، ولا يغرنك الملوك، فإنك إما حليفٌ وإما أن يقتلوك!».

قُلتُ: «من أنت يا هذا؟»، قال وقد بدا الدم يسيل من قلبه، وآثار طعنات برقبته كأنها تتسع: «أنا أجأ، المصلوب فدى المحبوب»، قُلت في بلاهةٍ: «ومن المحبوبُ؟»، فاختفى وحل الليلُ فجأة، وسطع نورٌ من فوق الجبل الشرقي، لا يُشبه نور القمر، كان أرقَّ، ولا يُشبه الزُهرة، كان أكبر، دققت بنظري أكثر، فإذا بامرأة عيناها كأنهما غاصتا في وجهها الدائري، ولونها كأن الزيتون غيره عسلٌ فصار لونًا يخصها وحدها، وشعرها انسدل خلف أذنيها حتى الترقوة. نظرت نحوي وقالت بصوتٍ تَردد برقةٍ في كل الوديان حولي: «أنا هي، أنا سلمى».

***

أغمضتُ عينيَّ مخافةَ الفتنة، وغيرت وجهةَ فرسي نحو الجنوب تجاه مكة، مُتبعًا كلام أجأ، فكان الظلام يغطي كل جوانبي إلا الطريق أمامي المنبعث نوره من سلمى.

***

وصلتُ قُرب مكة وقد نُصبت سوق عكاظ وتداعى الباعةُ يتلوهم أبناء القبائل كلٌّ في جماعة، من كلِ مكانٍ بجزيرة العرب، فنُصبت الخيامُ تحوي من أطايب العالم ما يسيل له لُعاب ملوك الحيرة، وزعفران اليمن، ولؤلؤ عمان، وزيوت الشام، وحناء عسقلان، رأيتُ كاهنًا يلوذ بأم الآلام وابنها فيُبشر، ورأيتُ قُبةً حمراء من أدم بوسط السوق، أمامها ألفُ ناقةٍ حمراء مذبوحة، دخلتُ الخيمة فإذا بوسطها عنترة واقفًا أمام النابغة الذبياني، سألتُ أحد الواقفين عن النوق المذبوحة فقال: «ذبحها عنترة بعد أن تركته عبلة».

رأيتُ عنترةَ ينظر إلى كل الناس أمامه مُحاولًا جمع قوته إلا أن الأسى من صوته بدا قائلًا: «ولقد ذكرتك والرياح نواهل مني.. وبيض الهند تقطر من دمي».

***

بكيتُ لحال عنترة، ووجدتُ يدًا تربت كتفي. نظرتُ فإذا بها، هي هي، سلمى التي ظهرت فوق الجبل الشرقي.

تركت القُبة مهرولًا حتى هربتُ منها إذ وصلتُ إلى مكانٍ لم يصلني فيه ضوؤها، حينها جاءني النابغة على فرسه، فقُلت له ساخرًا: «الحربُ ما زالت مستمرة، ولم تفد سياستك بشيء».

فغضب مني ولم يتفوه، حينها كانت سلمى قد عرفت مكاني، فاستسلمتُ لفتنتها، وأخذَتْ بيدي.

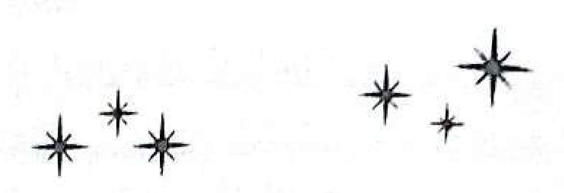
***

مشيت أتبعها، حتى توقفت ورفعت يدها، فرأيتُ عنترةَ فاقدًا للوعي وسط دمائه وبظهره سهمٌ وقفت الشمس بين فوقيه، أخذت بيدي مرة أخرى ومشينا ثم وقفنا على التلة العظمى بشرق عكاظ، حتى صارت الشمس تغربُ أمامنا حتى كأن السوق غارقة في الدم، حينها خرج النابغةُ من القُبة فوقع ميتًا.

صرختُ فيها فوضعت يدها على عينيَّ ثم أزالتها فوجدتُ قومًا من عبسٍ وآخرين من ذبيان وقد عُقد الصُلحُ بينهما، حينها تركتني وصعدت ناحية الشمس الغاربة، مددت يدي نحوها فسمعتُ صوتًا جميلًا. التفتُّ فإذا برجلٍ يدعو الناس إلى عبادة الله، وقبل أن أرى وجهه، استيقظت.



الهيبة والصعلكة



قال فرس السُليك:

كانت آخر كلماته بالدنيا: «لا أبٌ لي، لا زوج لي، لا ابن لي، كما جئت سأرحل، فأما الهيبة فلا هيبة».

وبعد رحيله بأربعة أيام، جئت أمه وفوقي دمه، فقالت: «قد رثيته، ووالله قد عرفت أنه قُتل، قبل أن تأتيني يا فرسه المحبوب».

***

أنا فرسه المحبوب، أحبني لأني أشبهه، كان يمسح ظهري دومًا ويقول إن الفرس بالشجاعة لا بالشكل، كان يتحدث عن نفسه لا عني، كان يرى في شكلي القبيح سواد وجهه وعظامه البادية، كان يرى في سقوط شعري، ملابسه المقطوعة عن جنبيه، كان يرى فيَّ صديقه الذي لم يجده طيلة حياته، وصحبته طيلة حياته، وقت طردوه ووقت عظموه، وقت ضربوه على لسانه ووقت جعلوه شاعرهم، وقت أن صدروه في الحرب، ووقت أن نهبهم وأطعم الصعاليك مالهم.

***

كُنت أنهب معه، كان يُطعمني من حشاش الحيرة ويأتيني بسكر سوقها الكبيرة، حتى الحيرة لم تسلم من غزواته وإن كان فوق كُرسيها الملك النعمان بهيبته، كان يستطيع أن يدخل بي على النُعمان ويمدحه، فيأخذ منه مالًا يكفيه وصعاليكه، لكنه كان يهوى النهب كما يهواني ويهوى السماء، كما يهوى القتل ويكره متاع الدنيا، كان يرى نهايته أمام عينيه، كُنت أرى الموت أمامه في كل شيء؛ في سيفه الذي لا يُغمد، وفي أنجمه التي يُشير إليها، وفي عدم قتله الحيات وفي دفن قتلاه حتى وإن كادوا ليفتكوا به، حتى إنه كان

يُلحدهم إن تقطعت ثيابهم، فيحفر الأرض بيديه كأنه يعاقب نفسه، ويُلحدهم ويُهيل عليهم التراب.

***

مع أنه كان يهوى النهب فإنه كان يُعظم مكة، أذكر ليلةً كان القمر فيها كاشفًا للحصى، وشح زاده فخرج مُقمرًا يبحث عن طعامٍ قِبَل مكة في ليلة، حتى هدَّه التعب فنام جواري، ولم يستيقظ إلا وفوقه رجلٌ يقيده، كان أنس بن مدرك ولما رأى السُليك عرض أن ينهب معه عبد الله بن الحارث الوداعي الذي نزل بمكة، وقف حينها أنس أمامه بسيفه الذي يُشبه القمر وقال:

- لتنهب معي يا سُليك.

- ومكة؟

- الهيبة أهم! المال الكثير أهم!

فقال له السُليك وقد نظر إلى السماء: «الليل طويل وأنت مُقمر، فأما الهيبة فلا هيبة».

وتركه ينهب وحده رغم جوعه، بل وأخبر فرسان مكة بنيَّته، حتى طاردوه وكادوا أن يُدركوه، نظر إليهم ضاحكًا، كأنه يُمسكهم بين يديه ويُحركهم كيف يشاء، ومر على البيت وطاف به باكيًا، حتى إن الناس كانوا يهمسون: «السليك النهَّاب يبكي»، لكنه لم يكن ليلتفت إلى قولهم، ويقول للسماء باكيًا: «اللهم إنك تُهيئ ما شئت لما شئت إذا شئت، اللهم إني لو كنتُ ضعيفًا كنتُ عبدًا، ولو كنتُ امرأةً كنت أمة، اللهم إني أعوذ بك من الخيبة، فأما الهيبة فلا هيبة».

وما إن يجف دمعه، حتى يطوف بي السماوات والأرضين، بين الحيرة وخثعم، نمر تارة على السُريان فننهبهم، ونمر تارة على صنم ذي الخُلصة فنأكل مما يهبه الناس، وتارة نقصد اليمن فنعيث فيه، أذكر يوم جاءته امرأة بأطفالها الباكين، نظر إلى عينيَّ كأنه يأخذ الإذن في ذبحي، لكنه تراجع وطاف بي الليل حتى أطعمنا المرأة وصغارها. وفي يومٍ من أيام سعد الذابح، قلَّ الزاد وأطفأت البرودة النار؛ فأغار بي على بني عوارة، كادوا أن يُمسكوا بنا لولا امرأة أجارتنا، مسح على ظهري وقال، هذي بتلك يا صديقي، ومدح المرأة بشعره ومضى.

***

كان زاهدًا في كل شيء وإن كان نهابًا، حتى إن المرأة عرضت نفسها عليه فقال: «لا أب لي، لا زوج لي، لا ابن لي، كما جئت سأرحل».

***

لكنه لم يرحل عن أمه طيلة بقائه في ناحية بني سعد، يأتيها بالطعام كل يومٍ حتى وإن كان عندها ما يكفيها، حتى وإن كان هو نفسه قد أكله الجوع، قالت له: «لتختر من ترضى بك وتسكن جواري». كان يضحك إذ تقول ويرحل، لكنه لم ينقطع عنها قط إلا حين ينهب اليمن أو الحيرة، كان يستأذنها أن يُفسد الكون، وأن يحفر الأرض، وأن يأخذ عسل نحل الجبال. كان يُعظم رأيها حتى وإن ورث منها سواد وجهه وشقاءه، ما أتعس الأيام يا سُليك، أجئت الدنيا لتُطعم الصعاليك وترحل؟ لِمَ لا يصير مثلك ملكًا؟!

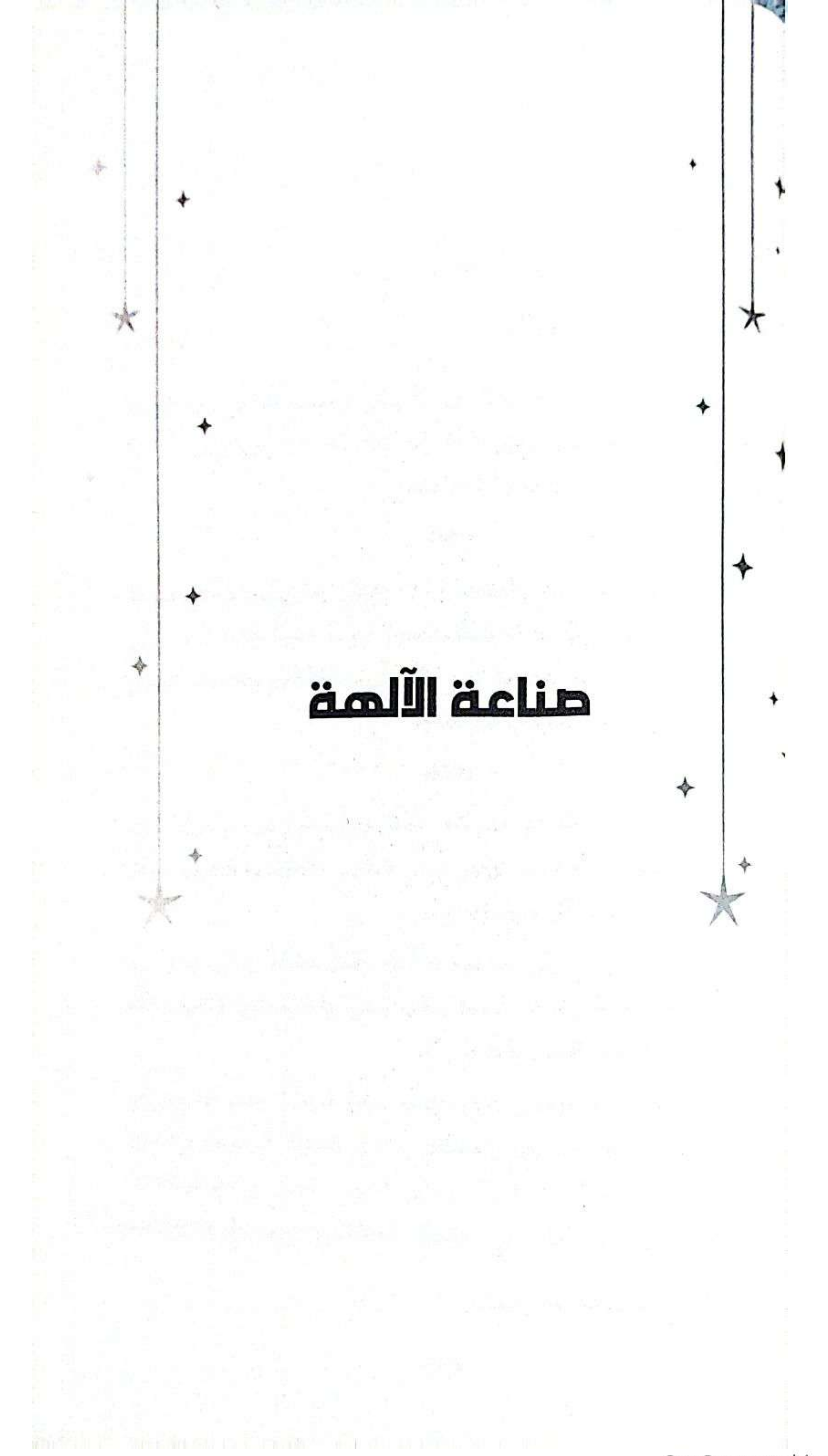
***

رحل عن الدنيا في يومٍ عجيب، يُشبه أيام سعد الذابح وإن كُنا بأقصى الرمض، في هذا اليوم كان قد نهب من الحيرة ما لم ينهب مثله بحياته، بل وطمع في نفس اليوم في قومٍ من خثعم مروا عليه، حتى ذاع خبره ونهبه، ونام ليلتها جواري وجوار نهبه العظيم، ولم يستيقظ إلا ورجلٌ فوقه، لكنه غرس سيفه بصدر السليك، كان الرجل أنس بن مدرك، ووقع السليك على الأرض، ولم يقل إلا: «لا أب لي، لا زوج لي، لا ابن لي، كما جئت سأرحل، فأما الهيبة فلا هيبة».

قبل أن يأخذ أنس النهب ويهرب.

جلست ليلتها جواره، وحفرت الأرض بسنابكي، ووضعته بلحده الذي يكشف جنبيه، وأهلت عليه التراب، وظللت أسمع صوته بأذني ما بقيت:

«لا أب لي، لا زوج لي، لا ابن لي، كما جئت سأرحل، فأما الهيبة فلا هيبة».



صناعة الآلهة



قال الصنم ذو الخلصة:

هم يحتاجون إليَّ، البشر يحتاجون إلى أن يسجدوا أمامي، أنا القيمة العظمى، أنا الوسيط بينهم وبين الإله، أنا الإله. يا عشتار، يا رحمن[1]، يا عزى، يا دبران، ستبقون الآلهة وإن تهدمتم.

***

بدأت حكايتي يوم مات ذو الخلصة، كان يعيش بهذي الساحة المكشوفة مُذ كان طفلًا، وبقي طيلة حياته طفلًا، قصيرًا دميمًا صوته يُشبه العنز، كان غريبًا بحق مُذ ولدته أمه الحبشية التي قالوا بأن جنيًّا أحمر جاءها في المنام وقال لها قبل أن تلده: «سمِّيه ذا الخلصة».

***

ماتت أمه بعد أن ولدته، لم نعلم كيف عاش ولم يرضع من أي امرأة! كيف مشى وهو ابن يومٍ ونصف بل وصرخ في الناس: «استعدوا للحرب، هناك خلف الجبل كرب، يأكل كل سهلٍ ودرب».

وقف الناس ينظرون إلى بعضهم بعضًا: «طفلٌ يتكلم ويُنذر، بحق رب إبراهيم ما هذا إلا طفلٌ وقع من السماء، لكن أخبرنا يا ذا الخلصة، تقول خلف الجبل كرب؟ من خلف الجبل يا صغير؟».

لم يُجبهم، وصعد البعض فوق الجبل فرأوا فرسانًا بعدد النجوم في الطريق رافعين السيوف نحو السماء، وركبت القبيلة أفراسها، وأشهروا السيوف وتحصنوا واختبأت النساء وجهز الأطفال النبال، ووقع الهاجمون في المصيدة، وسجدوا أمام ذي الخلصة، المنتصرون سجدوا، والمقتولون

(1) الرحمن المقصود هو رحمن اليمامة.

سجدوا: «لتأمر فنطيع، لنسجد تحت أقدامك فترضى، بحق رب إبراهيم ارضَ».

***

كان يرضى، يأتوه بالطعام فيرضى، يسكبون الفضة تحت قدميه فيرضى، بل وحملوه فوق أعناقهم ذات يومٍ ووضعوه في فناءٍ فسيح، غير مُغطى، تحده الأحجار الحمراء من جوانبه الأربعة كأنها كعبةُ إبراهيم المكية.

***

بقي طيلة حياته القصيرة بين الجُدران الحمراء، يجلس في وسطها فيُغمض عينيه ثم يخرج للناس كل شروق شمسٍ ويقول: «اهجموا على بني فُلان».

لا يُناقشونه، يركبون الأفراس ويُنظمون الصفوف، ويهجمون فيأتون بالغنائم، والياقوت والمروة البيضاء والفضة. كانوا يذبحون له، يسجدون ويسجدون له، بحق رب إبراهيم ما هذا إلا طفلٌ وقع من السماء.

***

كان يضحك منهم، يجمع الذبائح، والفضة والياقوت إلى داخل جُدرانه الحمراء، ويخرج كل ليلٍ لعلَّه يجد صعلوكًا تائهًا فارًّا من قبيلته فيؤويه، آوى إليه الشنفرى ثابت بن أواس في ليلةٍ بدرية بعد أن مل قبيلته، وآوى إليه امرأ القيس بن حُجر بعد أن هرب من الحيرة وكره المُلك وأباه وجده، وآوى إليه آخرين وآخرين، حتى صارت كعبته الحمراء مأوى لياليهم المُختبئة من نهار القبائل.

***

كان يُطعمهم من ذبائحه، ويغمس أيديهم في الدماء الجافة، يضع الفضة بحجورهم ويُطعم أفراسهم بطعام السادة، وقبل الفجر، يهيم الصعاليك في الصحراء مُجددًا، دون أن يشعر بهم أحد، دون أن يشك أحدٌ بذي الخلصة، ربما عطف عليهم لأنهم مقطوعون مثله، لكنهم أسوأ حالًا، هم قبائلهم التي خلعتهم موجودة، وهو أمه ماتت. هم منبوذون عند القبائل، وهو يسجد الناس أمامه، هم يسرقون الطعام، وهو يُطعمهم.

***

وفي يومٍ غطت فيه السُحب العُزى والدُبران، مات ذو الخلصة بعد أربعين عامًا، ولم يزل طفلًا.

ليلتها جاء الصعاليك، فوجدوه مُلقى بزاوية الفناء العاري وفوقه جني أحمر، لم يفزعوا، كان الجني يبكي، الدمعةُ من عينيه تسقط، والنار في جسده تنطفئ، وكلما بكى، انطفأت ناره، حتى مات الجني هو الآخر. مات ذو الخلصة، ومات الجني، والصعاليك تنظر إلى كليهما، كأنهم رأوا الجنة والنار بأعينهم.

***

بكى الصعاليك بعد ساعةٍ من الذهول، وخرجوا مُتباطئين حتى صاح ثابت بن أواس فيهم: «احملوا معي هذي المروة العُظمى».

جلس امرؤ القيس بن حجرٍ بسهامه التي يصيد بها الغزلان، ولم يُطع، قال في نفسه، كيف لابن ملكٍ -وإن تصعلك- أن يُطيع صعلوكًا.

حاول باقي الصعاليك أن يرفعوا الصخرة، لم يستطيعوا، حاولوا مُجددًا، لم يستطيعوا، دخلوا فناء ذي الخلصة، ووقفوا مكان دموع الجني الأحمر وأشار ثابت إلى موضع ذي الخلصة والجني وقال: «لتأتيا فتحملا معنا الصخرة».

***

حاول الصعاليك مُجددًا، فحُملت الصخرة البيضاء كحمامةٍ طائرة، ووضعوها وسط الفناء، وصعد ثابت على قمتها ونظر إلى ذي الخلصة المُلقى بالزاوية، وبدأ ينحتني على شكل وجهه ليومين، بعدها دفنوه بالزاوية.

***

بعد أن نحتني ثابت بكى، وخرج من الفناء وكُل الصعاليك إلا امرأ القيس وقف أمامي واضعًا رأسه بالأرض، ثم أخرج من جرابه ثلاثة أسهم[1] ومزق ثلاث مزقاتٍ من ردائه، ثم غمس يده بدم ذي الخلصة الجاف على الأرض وكتب على المزقة الأولى: الزاجر، وعلى الثانية: الآمر، وعلى الثالثة: المُتربص، ثم وضع الثلاثة في كيسٍ وخر أمامي فقال: «أريد أن أعود إلى أبي يا ذا الخُلصة».

مد يده بالكيس فخرج الآمر، فرح يومها كما لم أره كذلك قط، وخرج ولم أره.

***

(1) الأزلام.

كُنت صخرة، وصرتُ الصنم ذا الخلصة.

جاء الناس كلهم بعد أن غاب ذو الخلصة عن الخروج وقت الشروق لشهرٍ تام، ظنوه في البداية ملهمًا أو صعد إلى السماء مؤقتًا، لكن الوقت طال، ودخلوا الكعبة الحمراء. لم يجدوه، وجدوني، صنمًا منصوبًا كأصنام عمرو بن لحي، كأصنام مكة العظيمة، نظر الناس إلى بعضهم بعضًا، «صار لنا إلهًا من السماء كما لمكة». سجدوا سجودًا طويلًا أمامي، شعرتُ يومها أني إله، قاموا من سجودهم، قالوا: «بحق رب إبراهيم، هذي مروةٌ وقعت من السماء».

لم أستطع أن أصيح، لم يكن لي لسانٌ ولا سوط، أفيقوا يا بهائم، لستُ إلا مروةً بيضاء، لم يسمعوا شيئًا، واستقسموا بأزلام امرئ القيس أمامي.

***

كان الصعاليك يأتونني بالليل، فيلعبون بسهام الأزلام، والناس يأتونني بالنهار، فيستقسمون بها. أذكر يوم دخل عليَّ جابر بن مالك البجلي حاملًا ابنه عبد الله وعنزة. كانت عيناه ممتلئتين بالدموع لكنه لم يسكبها: «بحق رب إبراهيم اشفِ لي ابني يا ذا الخلصة».

ذبح العنزة تحت قدمي، وخرج ماسحًا دموعه. امرأةٌ لم تُنجب، زعيمٌ يُريد أن يغير على قبيلةٍ مجاورة. ماذا تأمرني يا ذا الخلصة، الزاجر أم الآمر أم المتربص؟

والصعاليك بدؤوا في الخوفِ مني، إن رآهم الناس بليلٍ أو نهار، قتلوهم. غابوا تتاليًا عني، عن ليلي، صرتُ مع النجوم وحدي، إلا ثابتًا قُتل أبوه ولم يجد ونيسًا في كل الجزيرة غيري، كان يأتي كل ليلةٍ بسيفٍ غارقٍ بالدم ويقول: «سأُفنيهم يا ذا الخلصة، ساعدني. قتلت اليوم فُلانًا».

كُنت أحبه، جاءني تسعًا وتسعين ليلة، قتل سيفه تسعًا وتسعين روحًا، وفي الليلة المئة اختبأ عشرة رجالٍ خلفي، وما إن دخل حتى أجهزوا عليه وقطعوا رأسه. قتلوه أمامي، قطعوا رأسه أمامي، ودفنوا جسده جوار عظام ذي الخلصة، وبقي رأسه جواري.

***

لن أنساه ما حييت، لن أنساه وإن وفدت عليَّ كل العرب بالهموم.

صار رأسُ ثابت عظمًا، وصرتُ عند الناس مُكذبًا، أنغيرُ على القوم يا ذا الخلصة؟ الآمر.

هُزموا، وقف كبير القوم أمامي، أراد أن يكسر رأسي لولا منعه الناس، بدأت نبوءاتي تفسد، ورجاء الحمل يُطيل العُقم، والإغارة على القبائل تعود بالخسارة، حتى الأمراض لم تعد تُشفى، جاءني عبد الله بن جابر البجلي بابنه الميت على كتفه وقال: «لماذا لم تشفِهِ كما شفيتني صغيرًا؟ لئن كَبُر أخوه جرير ليحطمنك».

كان الغضب بوجه الرجل كأن الماء جف منه، ركل حينها رأس ثابت العظمي، فكُسرت قدمه، ومات. قُلت لروح ثابت: «أتممت المئة نفسٍ يا ثابت، ولم يشفِك ثأر أبيك».

***

هجرني الناسُ كلهم بعدها، وإن بقيت على هيبتي القديمة، لم يجرؤ أحدٌ أن يُحطمني، وذات ليلة، دخل عليَّ مُتخفيًا كأنما كُل العرب تعدو خلفه، كشف وجهه ببطءٍ فإذا به امرؤ القيس، آهٍ عليك يا ملك كندة، تغيرت كثيرًا عن أيام شبابك، ما هذي القروح بجسدك، لا تسمعني، ولن تسمعني، مات ثابت وهجرتني الصعاليك، لا تهجرني.

***

وقف أمامي، قال إن بني أسدٍ قتلوا أباه وهزموه، كانت عيناه بلا دموع، لم يسجد. وقف ونظر بعينيَّ كأنه يتحداني وأكمل: «ما ترى في قتال بني أسدٍ مُجددًا يا ذا الخلصة؟».

مد يده إلى الكيس فخرج له الزاجر، زمجر وقال كأنه يُخيفني: «ما ترى في قتال بني أسدٍ يا ذا الخلصة؟»، خرج له الزاجر مُجددًا، زمجر مُجددًا: «ما ترى في قتال بني أسدٍ يا ذا الخلصة؟». أمسك بيده حجرًا ورفعه بوجهي، فخرج له الزاجر. قذفني بعيني، وسبَّني ثم قال وهو يبكي: «لو كان المقتول أباك لما منعتني»، وخرج رافعًا سيفه.

***

وجاء من خلف امرئ القيس صعاليك جُدد، منهم ابن جُدعان؛ شريفٌ تصعلك مثل امرئ القيس، سألته عنه فقال: «مات امرؤ القيس، عصاك فهُزم ومات عند ملك الروم». صاح الصعاليك الجُدد من خلفه: «ليحيا ذو الخلصة، إلهنا الرحيم».

***

مرت السنون، حتى تفاجأت بجرير بن عبد الله بن جابر البجلي يقف أمامي ومن خلفه جندٌ كثير، وبأيديهم فؤوسٌ تستطيع خلع الجبل، وقف الناس أمامهم، تقدموا بلين، وقالوا: «بسم الله رب مُحمد».

انسحب الناس من أمامهم باكين، حاول أن يُحطمني، حطم رأسي فوقعت فوق قبر ثابت، سمعته يتألم، حاول جرير تحطيم باقيَّ ولم يستطع، لم يستطع. أشعل فيَّ النار، وبقت يومين، حتى صرتُ أسود.

سيعبدني الناس يومًا ما حتى وإن صرت أسود، سيعبدونني لا محالة، وإن تحطمت يومًا، سينحتونني مُجددًا، لا محالة، لا محالة[1].

---

(1) إشارة لحديث المصطفى صلى الله عليه وسلم: «لا تَقُومُ السَّاعَةُ حتَّى تَضْطَرِبَ أَلَيَاتُ نِسَاءِ دَوْسٍ علَى ذِي الخَلَصَةِ».



وهديناه النجدين



مما جاء برقاقات دير هند:

الرقاقة الأولى:

أبدأ اليوم بكتابة ما حدث، وأنا أعلم أن الدموع لا تكتب حروفًا، ولن يراها الذي سيقرأ هذي الرقاقات بعدي، لكني سأكتب.

بدأت حكايتي معه، في مدرسة القديس سمعان، كان طفلًا مميزًا، شقيًّا، يُشبه أحجار قصر الخورنق البيضاء، صلبًا وإن كان جميلًا، لا يستقر بمكانٍ طوال اليوم، في الصباح يحضر دروسه التسعة بالمدرسة، وتحت الشمس يدور بشوارع الحيرة باحثًا عن شيءٍ لا نعلمه، لكنهم أخبروني أنه يقف أمام القصر كثيرًا، وعند الغروب يقف أمام الشمس مُغمضًا عينيه.

أتذكر أول يوم رأيته على هذا الوقوف، كان يُشبه آلهة معابد الشام، ويبقى على عبادته الغريبة هذي، حتى الصباح، فيعود إلى الدرس فتُقصف الأقلام تحت يديه ولا يخلو رداءه الأبيض من الحبر أبدًا. حتى ناداه أقرانه الحبار ونسوا أنه أكيدر، صاحب الهامة التي تشبه حضرموت، أكيدر بن عبد الملك الكندي، ملك العرب القادم، آهٍ على ملك العرب التعيس.

ذات يوم فرغت من الدرس فقام أكيدر وسط أقرانه، ووجَّه يده نحوي قائلًا: «شرحي خيرٌ منك».

كانت عيناه غريبتين، لامعتين مثل الشمس، لم أتحمل النظر إليهما، كان مخيفًا رغم سنه وحجمه الضئيل، لم أُعنفه، بل أعطيته عصا وجلست مكانه وجعلته يشرح، أحببته يومها كما لم أحب ابني، كان مَلكًا بحق، والملوك آسرة.

وفي يومٍ آخر، جاء من طوافه بشوارع الحيرة، بفتىً لم أره من قبل، وصاح فيَّ: «لا بد أن يتعلم عَديّ، هو مسيحي، ولا بد أن يُعلي كلمة الرب».

كان يومها غريب، لا يبدو طفلًا ولا شيخًا، هو كما جُعل، ملكًا، لكن لم يمر اليوم حتى جاء رجلٌ يبحث في كل وجوه الصغار عن طفلٍ اسمه عدي، نظرت إلى أكيدر وابتسمت، وأخذت الطفل إلى أبيه الذي أعطاني خمسين درهمًا مكافأة، لكني تعجبت أكثر إذ وقف أكيدر في طريق عدي وأبيه، كان قائدًا فوق ما يطيقه سنه، لكن الرجل مضى، وآثار حبر أكيدر فوق ردائه.



الرقاقة الثانية:

أضحك إذ أتذكر يوم علمته حلق اللحية، سخر مني، قال في تحدٍ: «ولِمَ أحلقها يا عجوز؟ أنا بها ملك».

وأضحك إذ أتذكره ينظر إلى ثمامة ابنة أحد شعراء القصر، كان ينتظرها عند باب الحيرة الجنوبي الكبير فيضبط الأيام وأبيات الشعر للقياها، ويسأل العرافة عن طالعهما، ويختبئ في أزقة الحيرة ويأتيها بكل عجيب، كانت الحيرة موطنه أكثر من دومة الجندل، موطنه الذي يلاقي فيه أصدقاءه من كل بلاد العرب، حتى عدي لم يعد يأتي الحيرة مع أبيه إلا وزار أكيدر بالمدرسة، كان ملكًا بحق.

***

كبر أكيدر أمام عينيَّ إلا من شهورٍ قليلة كان يعود فيها إلى أهله، حتى أتم السادسة عشرة فغاب عن المدرسة والحيرة، كان يزورني كل فصلٍ مرة، قبل أن يدخل على الملك في حملٍ من الهدايا، حتى تبدل الحال إذ سمعنا برُسلٍ من يثرب لكل قبائل العرب، قالت بعض الوفود إنها من ملكٍ جديد، وقال البعض بل نبي، يقول إنه نبي، لم يتغير الحال عندنا كثيرًا، ولم نكن نتخيل أن تطأ قدم خيول هذا النبي أبواب هذي المدرسة والدير.

جاءني أكيدر في الربيع التالي وقال: «ذهبت مع وفد القبيلة إلى محمد، كرهته قبل أن أراه، لكنه قوي، سيفه عنيد، ورجاله لا يهابون الموت، لكنهم يفترشون الأرض جواره، عاهدناه على دينه والزكاة، أي دينٍ هذا الذي يرفع السيف، أبعد المسيح سيف؟! عاهدته معاهدة ملك، لا معاهدة نبي، ولولا ضعفي لقتلته، لو كنت ملك دومة لما عاهدته، لكنه حُكم القبيلة، حتى طيءٌ

عاهدته، أتتذكر عدي؟ عدي بن حاتم؟ الذي جئت به إلى المدرسة؟ كان ممن عاهده».

حاولت تهدئته، لم أفهمه يومها، لم أفهم أيسعى لحُكم قبيلته أم حُكم كندة أم حُكم العرب، حُكمٌ باسم دينه أم باسم نفسه! وجهه كان دمًا، كان شمسًا في الغروب لا يتلوها إلا ظلام.



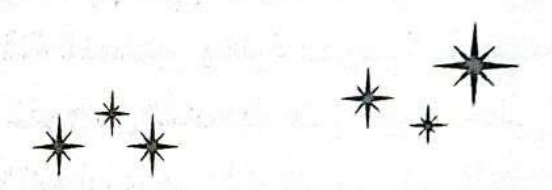
الرقاقة الثالثة:

انقطع عن زيارتي منذ عام، اشتقت إليه، صليت للرب أن يحفظه، حتى مر بي عدي، لم أعرفه، كان يرتدي لباسًا من الصوف يُغطي نصف وجهه، خفتُ منه قبل أن يطمئنني، سألته لم جاء الحيرة، فعرفت هروبه من جيوش النبي الجديد المُلاحقة، سألني عن أكيدر، حينها أدركت هلاكه، قال: «جاءني وقال: «أنتحد باسم المسيح لمواجهة هذا الملك الجديد؟». لم أستطع التفكير، هجموا علينا بعد أن نقضنا العهد، وأُسرت أختي، لكني لم أستطع النظر إلى الخلف ولا إلى أكيدر وقررت الهرب إلى الشام وإن قطعت طريقًا أطول حتى لا يلحقوا بي، أكيدر لا يفهم حجم قوة هذا الملك، لو رآه -بأي قوةٍ- لقتله».

***

دارت بي الأرض، وضاقت بي المدرسة خاصةً بعد أن قل طلابها بخلو الخورنق من اللخميين، فرغت الحيرةُ من الناس، بضاعةُ السوق كسدت، والبئر الوسطى جفت، حتى العرافات تركن أبواب المدينة وطُفن على البيوت، البيوت التي بدأ أهلها في هجرها، متى تغير الزمان هكذا؟ متى تغير؟!

***



الرقاقة الرابعة:

جاءني عدي مُنكشف الوجه، وقف يومها أمام الدير ولم يدخله، حدثني يومها كأنه يريد إسقاط حملٍ من فوق كتفيه، قال: «قُتل أكيدر، ودانت العرب للنبي»، تعجبت: «النبي؟»، قال: «نعم، قد آمنت به».

***

لم أحدثه بعدها، ظل يُحدثني عما حدث لأكيدر بالضبط، عن هروبه، وعن ملاحقة رأس جند النبي خالد له، حدثني عن ذبح أكيدر لمن خالفه من القبيلة، وعن سفره لطلب عون نصارى الشام، مضطهدينا، وعن صيحته: «أنا ملك كندة، أنا ملك العرب».

كان يريد أن يقول لي، لم يعد أكيدر ذلك الفتى البريء، تغير أكيدر، لكني لم أجبه.

***

بعدها بثلاثة أعوام، جاء خالد ومن خلفه جندٌ كثير ووقفوا أمام الدير، كان يُشبه الجبل، تختبئ السماء خلفه، لم أر الحيرة من خلفهم، لم أر السماء، خفتُ منهم رغم إعطاء الأمان، لكني ابتسمت إذ رأيتُ عدي بينهم، بين جُند خالد، أقبل عليَّ مُبتسمًا وقبَّل رأسي، حدثته يومها ولم أمتنع، سألته:

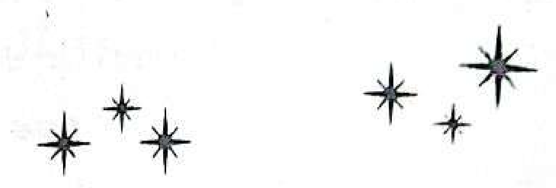
- ولماذا آمنت؟
- جاءتني أختي وأخبرتني عن معاملة النبي لها، وأنه أعطاني الأمان، قُلت بنفسي: «سأقول للجميع إنه نبي، ولنفسي إنه ملك»، دخلتُ عليه غير منحنٍ، كان يفترش الأرض، فخلع عباءته ورماها لي لأجلس عليها، بُهت، ملك؟ ربما! لكن أيُّ الملوك هذا؟ وقبل أن أنطق كلمة قال: «**لعلك**

يا عدي إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من حاجة المسلمين وفقرهم؟! فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم، حتى لا يوجد من يأخذه، ولعله يا عدي إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من قلة المسلمين وكثرة عدوهم؟! فوالله لتوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف إلا الله»، وها هي الأيام تُنبئ بما قال النبي عليه الصلاة والسلام، ولولا كان على الحق ما كنت أمامك الآن، فآمن معي.

ضحكتُ منه، لا أترك دين المسيح، وسأتبع أكيدر على ما مات عليه، آهٍ يا أكيدر، أمثل عقلك يضل؟!



البكاء بين يدي هدهد



قال هُدهد أبي ذؤيب:

جئته ليلتها، كان القمر يُبطئ في اكتماله كأنه لن يكون بعدها بدرًا رغم ليلة الثاني عشر من ربيع الأول، وريح الصحاري ساكنة، ظننت جنَّها مات أو حلت بها لعنة، كُل شيءٍ كان ساكنًا، ولو صاحت عنزة لأسمعت بين المشرقين.

***

جئته بظهر خيمته، رأيته نائمًا معوجًّا كأنه لا يستريح، طرت بين أذنيه وهمست: «خطبٌ عظيمٌ يا أبا ذؤيب، قُبض «النبي محمد» فعيوننا تذري الدموع عليه بالتسجام وفات ميعادك».

فزع من نومه كمن ارتكن إلى قنفذ، نظر حوله إلى كل الاتجاهات ووقف ينظر إلى الأفق، لم يكن أحدًا إلا السكون وأنا، لكنه لم يعد إلى النوم وصرخ: «لا لم يُقبض النبي يا خبر الشؤم».

***

ركب ناقته، ومسح عن عينيه النوم كأنه يرميه كي لا يعود أبدًا. «لماذا تأخرت عن زيارة النبي يا أبا ذؤيب، أخذتك التجارة؟! فات الميعاد يا أبا ذؤيب».

لم يقتنع أن النبي مات، ونظر إلى السماء فلم يجد غير برودة سعد الذابح[1]، تفاءل خيرًا، صاح في نفسه. لألحقنه، لأكلمنه قبل أن يصعد إلى ربه، لأصيرن من أصحابه، ليضعن يده على رأسي وليدعون لي ولأولادي، ولأعاهدنه ألا أعود إلى تأجيلي.

***

(1) نجمان في مدار الجدي، يرافقان أيام البرد.

ظل يلكز ناقته كي تسرع ناحية يثرب، بدا الطريق طويلًا، بدت الصحراء واسعة والنجوم منطفئة كأنها تُضله عن مقصده. «لماذا تأخرت عن زيارة النبي يا أبا ذؤيب، لماذا ذهبت بتجارتك وقت الفتح، لماذا لم تُهاجر إليه، أبناؤك أهم من النبي؟ فات الميعاد يا أبا ذؤيب».

***

لكز الناقة أكثر، وفزع إذ سمع صوتًا من جانبه، رأى شيئًا تحت القمر الخَجِل، أفعى تقبض على قنفذ، الأفعى تموت، والقنفذ يأكلها. «صبر القنفذ وأكل الأفعى يا أبا ذؤيب، ولم تأكل بصبرك إلا فقدان صحبة النبي».

***

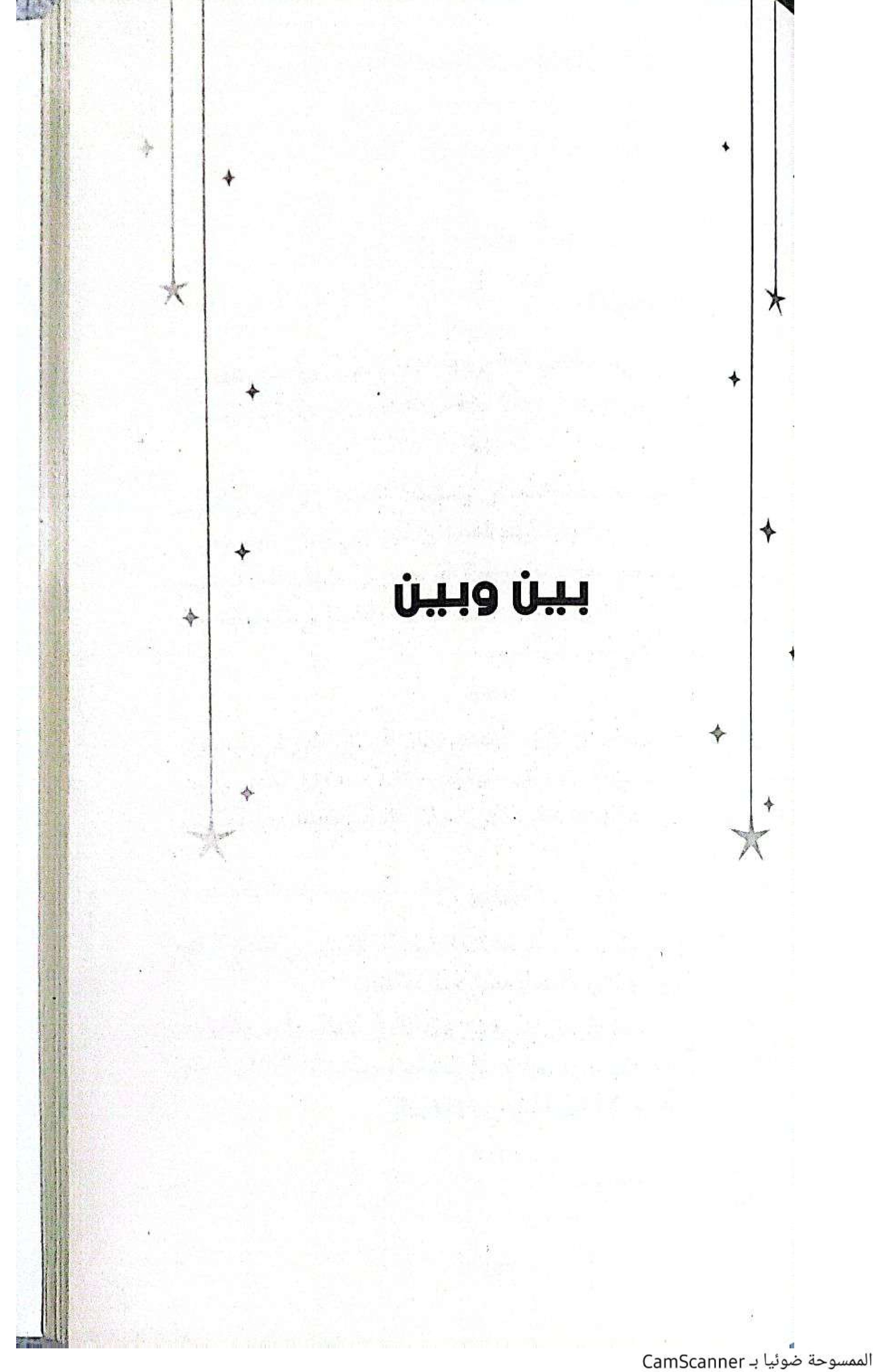
لكز الناقة أكثر وأكثر، وسال الدم منها، كيف يصير التأخير صعبًا هكذا؟ كيف يقبض الله نبيه قبل أن أراه؟ آمنت به ولم أره، لماذا لم أهاجر وألزم قدميه، لماذا وقفت بعيدًا عن البيت الحرام عندما كان يطوف بحجة الوداع، لماذا لم أتقدم وسط ضجيج الناس لأُقبل رأسه وقدميه، هلكت يا أبا ذؤيب، هلكت، إن مات النبي قبل أن تراه هلكت.

***

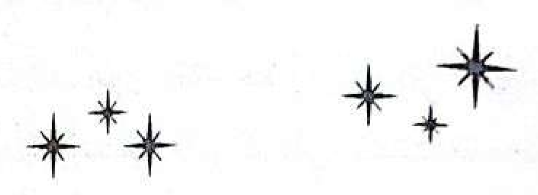
حينها، شعرت أنه سيقتل نفسه، ولم يكن هناك من يمنعه سواي، طرت أمام فرسه فزجرني، فطرت من أمامه نحو اليمين، تفاءل خيرًا كعادة العرب، لا لم يمت النبي، سأجده وسيدعو لي ولأبنائي لا محالة.

***

وصل عند حافة يثرب أخيرًا، وسمع ضجيجًا كضجيج الحجيج حول النبي يوم الحج، لكن الضجيج كان من بكاء الناس، قُبض النبي وفات الميعاد يا أبا ذؤيب، فات الميعاد.



بين وبين



قال جبلة بن الأيهم:

✦ ما الهدف؟ أخبرني يا خاتمي الذهبي، يا حرير السرير ويا طيب الهواء ما الهدف؟ أموت الآن على سريري ببطءٍ ومضى العُمر ورائي ولم أعلم الهدف.

***

كان الهدفُ واضحًا، مات النُعمان وسقطت الحيرة ولن يكون للعرب بعدها ملك غيري، غير جبلة بن الأيهم الغساني، غير بني غسان ملوك العرب، كل العرب ستركع أمامي، سأبدأ بالسيطرة على جيراني من بني أسد، لي فيهم أصدقاء مثل ضرار بن الأزور سأتزوج أخته خولة، أنا حامي الروم، أنا ملك العرب، لكن العرب كان لهم رأيٌ آخر.

***

جاءني صديقي ضرار بن الأزور الأسدي وقال بأن نبيًّا ظهر في يثرب وقد انتصر على أهله المكيين[1]، ضحكت، قهقهت، وقفت معه فوق القصر ورأيت كل الجزيرة تحتي وأكملتِ ضحكي، لكن ضرارًا عاد إلى قبيلته وهو يُحذرني من هذا النبي.

***

بعثت العيون إلى يثرب، وأنا أقهقه كلما رأيت كل العرب في منامي تركع أمامي، جاءت العيون وقالوا جميعًا: «نبيٌ ليس بملك».

ضحكت، نبي! وسط الرمال نبي! إن هذا لقولٌ عُجاب يأخذ بالألباب، سأهجم عليه، أهجم على من؟ حفنة من الضعفاء وسط الرمال؟ لن أهجم وسأترك الزمان يأكلهم كما قتل اللخميين بالحيرة.

***

(1) معركة بدر.

ظننت أن هذا الملك لن يتعدى أمره حدود يثرب، لكنه أشهر سيفه، جاء خبر صلحه مع مكة، قُلت لضرار: «ما زال ضعيفًا». أرسل إليَّ رسالةً يدعوني إلى الإسلام، قال ضرار: «أحسن جوابه»، فمزقتها.

لم يزرني ضرار بعدها، قُلت: «ما زلت أقوى منه»، حتى أرسل إليَّ جنودًا يحملون رايته بمؤتة، فهزمتهم وهربوا، خدعني، نعم خدعني، ظننت ضعفه فوقفت فوق قصري مُجددًا وأنا أرى كُل العرب تحتي.

***

جاءت الأخبار بهزيمته للقبائل، الطائف تُسلم، بني أسدٍ من تعامل معهم؟ ضرار، صديقي، صديقي صار مؤمنًا به وقاتل قومه بسيف الملك الجديد، ما أسوأ الأيام يا ضرار ولعن الله تقلبها.

جاءت الأخبار مُجددًا، هُزم العرب في حُنين وجاءت وفود الجزيرة كلها تبايعه، تُبايع من؟ الملك الجديد؟ أنا ملك العرب. شعرت الأرض تحت قدمي تهتز، قد جاء دوري، سيقتلني كما قتل كل من حاربه، لكني أقوى منه.

***

أرسلت العيونَ مُجددًا، قالوا: «نبيٌّ ليس بملك، وقد أتاك بجيشه وسط كل هذا الحر يصطلي، ولم يتخلف عن جيشه رغم العُسرة إلا قليلٌ لا يُذكر».

لم أرسل عيونًا مُجددًا، سألت عمن تخلف عن جيش هذا الملك من أصحابه بلا عُذر، فقالوا كعب بن مالك، كان ممن مدحني حين توليت الحُكم، ولذا أرسلت إليه نبطيًّا أعرج ممن يبيعون الطعام في يثرب، برسالةٍ قُلت فيها:

«أما بَعْدُ:

فَإِنهُ قَدْ بلغني أَن صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلاَ مَضْيَعَةٍ، فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِك».

لكنه رفض، رفض، لماذا رفض؟ لم أعلم، لكن الهدف ما زال واضحًا.

***

مرت السنون، دانت فيها كل العرب لمُحمد، مات مُحمد. حاولت مُساعدة العرب كي يثوروا على خليفة مُحمد، كي أكون ملك العرب الأوحد، لكن فشلت،

وعادت كل العرب مُسلمة، ولم أعِ إلا ودمشق مفتوحةً من عُمر خليفة خليفة مُحمد.

لم أجد حينها غير الحيلة، الحيلة هي التي ضمنت بقائي، لن أبقى إلا ملكًا وإن ثارت كل العرب ضدي، الروم خلف ظهري وسيجعلونني ملكًا، ولذا دبرت مع الروم حيلة، لن نبعث عيونًا، سأكون أنا الجاسوس على العرب، سأدعي الإيمان بدين الإسلام وأعيش وسطهم.

***

نزلت بمكة، وبايعت عُمر لكني لم ألقَ ضرارًا الذي كان مع الجيوش المُحاربة، حاولت تقليد المُسلمين، لكني لم أنزع خاتمي الذهبي ولا عباءتي الحريرية ولا سُرج فرسي الفضية.

لم يعترضني أحد إلا بالنصيحة، بل كانت النساء تخرج لمشاهدتي فوق فرسي، إلا أن أحدهم قد وطئ عباءتي الحريرية بقدمه فضربته، حاولوا أن يقتصوا مني، من ملكهم، لكني تركت مكة في المساء أقهقه بعد أن عرفت كل ما أريد عنهم.

***

بعد سنتين من هزائمي المُتتالية أمامهم رغم معرفتي، أتى اليوم المُنتظر، يوم الفصل. إما أن أكون ملكًا للعرب حتى أموت، أو أموت. ليس هُناك خيارٌ ثالث.

وقفت وسط جيش الروم باليرموك ووقف جيش المُسلمين أمامنا نحيلًا، في نفس عرضنا لكنه نحيل، إن وقفنا فوق تلة السعدي جوارنا رأينا آخره بسهولة، لكن قادتهم برزوا كأعلام البحر، وتقدَّم ضرار بن الأزور بين الجيشين ونظر ناحيتي وقال: «أنا عذاب الله بكم، من يخرج لي؟». خرج فارس، فقُتل، وآخر، فقُتل، وآخر وآخر، حتى تضعضعنا، وخاف فرسي لكني حاولت طمأنته، كانت السروج الفضية وقتها مُضحكة، بدا الموتُ أقرب من تلة السعدي ومن لبس الذهب والفضة.

***

استمرت المعركة أربعة أيام، ساعدتنا أعدادنا على الهجوم على المُسلمين لا انتظار هجومهم، قهقرناهم في أكثر من مرة، بل وهاجمنا خيام النساء حتى خرجوا لقتالنا، كدت أقهقه وسط المعركة إذ رأيت خولة بنت الأزور تُقاتل مع النساء، لو تأخر الليل واستمرت المعركة أكثر، لفني المُسلمون عن آخرهم.

***

نمت يومها أحلم بقصورٍ من ذهب، بأسري لخولة وأخيها، وبوفود العرب أمامي، لكننا تفاجأنا في اليوم الأخير بالمُسلمين هاجمين علينا، المُسلمون الأقل منا عددًا يهجمون، نظرنا لبعضنا بعضًا، سيفنى هؤلاء السُذج! لا بد للهاجم من تفوقٍ عددي، صددنا الهجوم وكانت المُفاجأة، جُنود خالد بن الوليد من خلف ظهورنا، نظرت أمامي وخلفي. ثم نظرت إلى الأعلى، لا مفر، لا مفر.

***

تركت المعركة إلى الخيام وحملت أموالي وهربتُ قاصدًا الشمال نحو القُسطنطينية، كان الهرب خيارًا عكس ما ظننت، وأنا الآن فوق سريري، أنتظر الموت، صار الهدفُ الذي كان واضحًا، ساذجًا. أنا ساذج.



تأخير



حين دخل أبو الأصبغ[1] على مروان بن الحكم في مجلسه بمدينة رسول الله، سأله مروان: «**ما سنك يا شيخ؟**». كان مروان يعلم سنه، لكنه أراد إذلاله، كان مروان طائشًا في عُمر أولاده الذين خبأهم يوم الفتح من النبي مُحمد.

آه، ما أسرع الأيام وأعجب القدر يا أبا الأصبغ، مُحمد الذي حاربته، تسير اليوم إلى مدينته لتزور قبره، وتبكيه كما لم تبكِ أولادك.

انحنى الظهر يا أبا الأصبغ، وزهدت الدنيا، ورجوت الله الأجر العظيم، وأن تكون مع مُحمد بجنان ربه، محمد الذي نفرت منه يوم الصلح أمام جميع قريش.

***

«**عشرون ومائة سنة، سني عشرون ومائة سنة يا مروان**».

ابتسم مروان ناظرًا إلى ذراعيه الصخريتين وقال: «**تأخر إسلامك أيها الشيخ حتى سبقك الأحداث**».

***

آهٍ عليك يا أبا الأصبغ، يلومونك على التأخير! أمسكت بيدك السوط ولم تجلد مؤمنًا بالدين الجديد، قالوا لك: «أتتبع دين مُحمد؟!»، خفتَ وهويت على ظهورهم بنار السوط، لماذا لم تكف، لماذا لم تُعلن إيمانك، أتتذكر يوم عزمت على ذلك، وقف أمامك الحكم أبو مروان هذا ومنعك، ولو وزنوا قلبك لطار لمُحمد، ما أسرع الأيام يا مروان، ما أعجب القدر.

***

(1) حُوَيْطِبُ بنُ عَبْدِ العُزَّى القُرَشِيُّ العَامِرِيُّ.

نظر إلى مروان بجذعه المحني، وابتسم كأنه رأى كُل الزمان: «**تأخر إسلامي نعم. الله المستعان، والله لقد هَمَمْتُ بالإسلام غَيْرَ مَرة، كل ذلك يَعوقني أبوك عنه وينهاني، ويقول: «تَضَع شَرَفك، وتَدَع دينَ آبائك لِدين مُحْدَث، وتصير تابعًا؟!»**».

سكت مروان حينها كمن رأى موته.

أسكتَّ الآن يا مروان؟! لم ترَ شيئًا كشيوخنا يوم بدر، طالعناهم ورأينا في القتل عجبًا، كانوا أقل منا، وأقل نُضجًا، لكن قُتل الشيوخ يا مروان، قُتل الوليد بن المُغيرة، وقُتل ابن أبي معيط، وقُتل أمية بن خلف. وأنت! أنت عُدت إلى أمك، كيف أؤمن وقد قتلوا خلاني، كيف أؤمن وقد قتلوا جزءًا من عقلي وروحي، لا، لا، كُنت مؤمنًا والله، لكن كيف أصرح بعد الذي كان!

***

«**يا مروان، أتذكر كيف عذب أبوك عُثمان إذ آمن؟**».

لماذا تصمت الآن، أين كُنت إذ وقفتُ بفرسي ناحية الطريق الشمالية، قُلت سأقصده، سأقصد النبي وإن عيرني القوم وأؤمن به، أين كُنت يوم رأيتُ أبنائي بوسط الطريق خلف النجوم يصرخون فيَّ: «سيأكلنا القوم، ألا ترانا يا أبانا؟»، عُدت إلى مكة أصيح: «أراكم، أراكم».

***

أين كُنت أيام عمرة القضية، تركنا مكة للنبي ومن معه، قُلت لتذهب إليه، لتأتِهِ وتُقبل الأرض تحته، قد جاءك يا أبا الأصبغ وإن عيرتك العرب، لماذا وقفت مع سُهيل بن عمرو في آخر أيام العمرة أمام النبي، وقُلت: «لتخرج من مكة اليوم».

أنت؟ أنت المؤمن به، تُخرجه! ما أتعس الدنيا وأضل الهوى.

***

أين كُنت يوم الفتح؟ فات الوقت ولم تؤمن يا أبا الأصبغ، فات الوقت وسيقتلك مُحمد ويقتل أبناءك أمامك، أين كُنت يا مروان وأنا أخبئهم في كل مأمن، سيقتلهم النبي، خبأتهم، وبحثتُ عن مكانٍ لا تراني فيه الأنجم، لكن ردد الحصى قول النبي: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**».

لا يا رسول الله، اقتلني قد تأخرت. اقتلني، ها هم أبنائي أمامك، لا تبلغهم مأمنهم. كفِّر عن ذنبي.

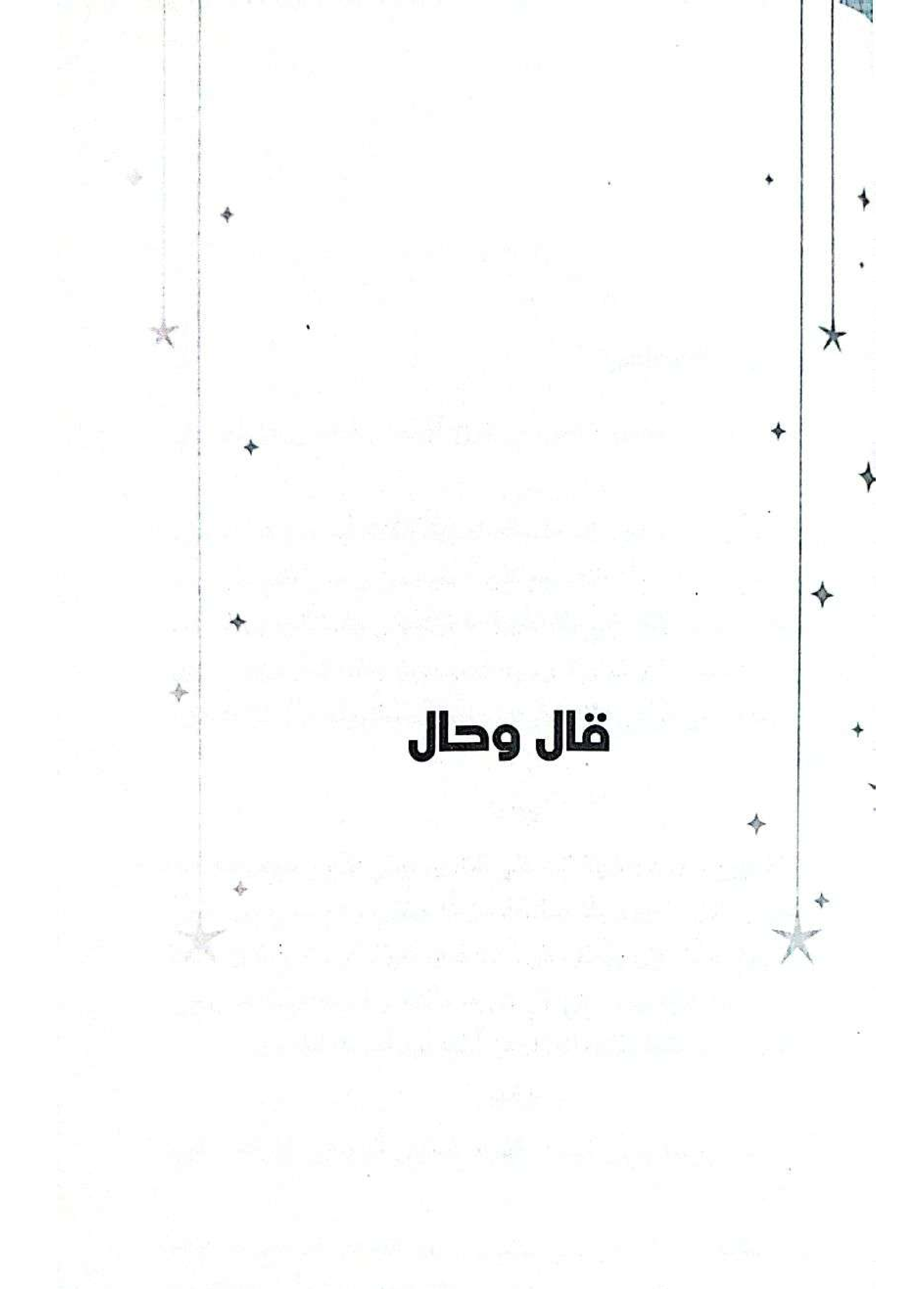
«اذهبوا فأنتم الطلقاء»

***

أين كُنت يوم ارتد الناس بعد وفاة النبي، أأنت من دفعت سهيل بن عمرو ليخطب في أهل مكة ليُثبتهم؟! تسألني الآن ما عمرك وتقول بأن الأحداث سبقوني؟ لا والله ما سبقوني، لا والله ما سبقوني.

***

خرج حينها من عند مروان الذي ندم على سؤاله، واتجه إلى قبر النبي وبكى، بكى وقال: «لعن الله الهوى، لعن الله الخوف، «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ». نرجو الأجر، نرجو الأجر العظيم».



قال وحال



قال طاعون عمواس:

في المِحَن، يبين معدن الناس، ويفترق أصحاب الألسن عن أصحاب القلوب.

كان الجيشُ في عمواس، الكتائب المنتصرة، القائد أبو عبيدة، الصحابةُ المتناثرون في كل فوجٍ كأن الله رسم على أرض عمواس خيرًا بشرٍ على وجه الأرض، لكني جئت، جئتهم في ليلةٍ قمرية، ظهرت على جلد الأقوم بن الحارث التغلبي، بثورًا بيضاء كان كبار القوم يعرفونها، ولذا وقف كبير قريشٍ سهيل بن عمرو وخطب في الناس: «إنه الطاعون، فقُوا أنفسَكم وأهليكم نارًا والجؤوا إلى الله».

***

علا الضجيج ونزلت سكينةُ الله على الناس، وبقي الأقوم مع مرضه عند حافة الجيش، كان الأقوم رجلًا صالحًا، مؤمنًا حقًّا ولذا لم يفزع من الموت الذي سار إليه أصلًا، كان يختلف عن أخيه عُباد كثيرًا، عُباد الذي كان يتشبه بالنبي صلى الله عليه وسلم في كل شيء، مأكله ومشربه وصلاته، وحتى إدهانه شعره، رغم خفته. لكنه انعزل عن أخيه يوم أصابه الطاعون.

***

رأيتُ عُبادًا يومها يسأل نفسه، أيترك الجيش أم يبقى. يتركه، يبقى، يتركه، يتركه.

حينها انتشر بين الجيش قول صاحب رسول الله عبد الرحمن بن عوف أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «**إذا سمعتم به -أي الطاعون- بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا**».

فسكن الناس كلهم، حتى أبو عبيدة نفسه، رفض ترك الجيش بعد أن جاءه أمر الخليفة عُمر.

***

ساد التسليم لقضاء الله بين الناس، الكُل ينتظر الموت، الكُل ينتظر ظهور البثور البيضاء على جلده، لم ينطق أحدٌ «لماذا يا رب؟»، كُلهم رضوا، حتى سهيل بن عمرو تراجع عن خطبته في الناس كيوم مكة، هو نفسه تعجب، أي امتثالٍ هذا، أي رضًا، لكنه بكى إذ عرف مرض ابنه أبي جندل.

***

لم يتركه سهيل، بقي جواره، غسل مصاب جلده بدموعه، تذكر دموعه يوم حبس ابنه كي لا يهاجر إلى النبي بالمدينة، تذكر دموعه يوم دفن أخاه بعد معركة اليمامة، اليوم سيسبقه ابناه إلى الجنة. تماسك سهيل، وقام فحفر قبرًا لابنه، قبل أن يلاحظ بثورًا بيضاء على جلده؛ فحفر قبرين، وبعد أن انتهى، رأى عُباد هاربًا على فرسه من عمواس.

الخطبة الوحيدة لسيد الخطباء..



قالوا له: «ستكون على رأس الوفد مع سليم وسعد ابني مالك بن أبي رباح، لتبايعوا أمير المؤمنين معاوية على أن يخلفه ابنه يزيد».

نظر حوله، كانت كل العيون تنظر إليه، هو أفصحهم وأقواهم، هو الذي وفد على رسول الله فيمن وفد من بني عذرة، هو الشريف، وفوق ذلك هو المقاتل في صفين جوار معاوية. أطرق أمامهم، ورأى خيطًا من الزمان أمام عينيه، لكنه مرتجف، أخذ منهم اللواء، وركب فرسه، ثم ترك الحي للخلاء، ترك عيون الذين أعطوه لواء رسول الله، ترك مراعي الشاة حتى وصل إلى قفرٍ خارج وادي القرى كله، وجلس جوار شاهد قبرٍ مجهول، فنظر إلى السماء التي احمرت قبيل الغروب، ثم نظر إلى القبر في سكونٍ وقال: «ليتني مت قبل هذا».

***

في الصباح تجهز الوفد، حمل اللواء مجددًا، وسار الركب بطيئًا، أمسك اللواء من نفس موضع يد رسول الله، من نفس موضع يوم صفين، كان من أنصار معاوية، انتصر مع القوة، انتصر مع الشام. حكى له أبوه صغيرًا، عن يومٍ انتصر فيه آباؤه من بني عذرة على ملك الغساسنة بالشام، أراد أن يضم وادي القرى إلى ملكه لكن هيهات أمام جماجم عذرة، كان يفخر بنفسه، وبعذرة، وبالقوة التي فيهم وفيمن يحالفون.

***

نظر خلفه، كان وادي القرى قد انحسر، لكن طويلًا هذي المرة، قال لنفسه: «لتقطع رأس معاوية وتخلص نفسك من ذنب نصرته».

نظر إلى وادي القرى المنحسر خلفه، ظل يلتفت كأنه مودع، ما أضعف الإنسان في الصحراء، ما أصغر الإنسان تحت قدمي جبل، ما أهون الإنسان

بلا قوة. قال لنفسه مُجددًا وقد أحاطته الجبال وعلا صفير الحيات: «بل تنصر معاوية وابنه، تنصر عذرة ومجدها».

***

ظل الصوت يتردد في أذنيه، حتى هدَّه، ووقف أمام سيره النوم وصده، ورأى في المنام رجلًا على شكل شجرة، له ذقن يمتد من وجهه كحيةٍ سوداء، وسمع من خلفه صوتًا يقول: «الماء أو السيف يا صاحب السيف».

أفاق مرتعدًا مختنقًا كأنه على شفا الموت أو أقرب، ونظر إلى سماء الليل الذي حل فإذا بسعد الذابح فاستبشر، وهدأ روعه.

***

تحرك الركب في الصباح مجددًا، أجمعوا على نصرة معاوية وابنه، لا مجال لغير القوة، فسمع صوت عقله: «أنت القوة، أنت عذرة، رضيت بالباطل أول الأمر، لماذا ترضى به الآن مجددًا؟».

تأرق ركوبه، نزل من فوق فرسه وتمم على سيفه، ألجمه الحر والصوت، مر بقنفذٍ فضربه بقدمه، لم يتكلم طوال الرحلة، حتى وصلوا أمام حارسَيْ أمير المؤمنين، متى صار لأمير المؤمنين حراس؟!

***

اجتمعت وفود قبائل العرب وعلى رؤوسهم جماجمهم، محمد بن عمرو ابن حزم من المدينة، والأحنف بن قيس في وفد أهل البصرة، والضحاك بن قيس الفهري.

أتاهم خبر رفض الحسين وابن عمر، ظهر خيط الزمان أمام عينيه، رأى كل الدم الذي سُفك، رأى اقتتال خير بشر، رأى فتنة جديدة.

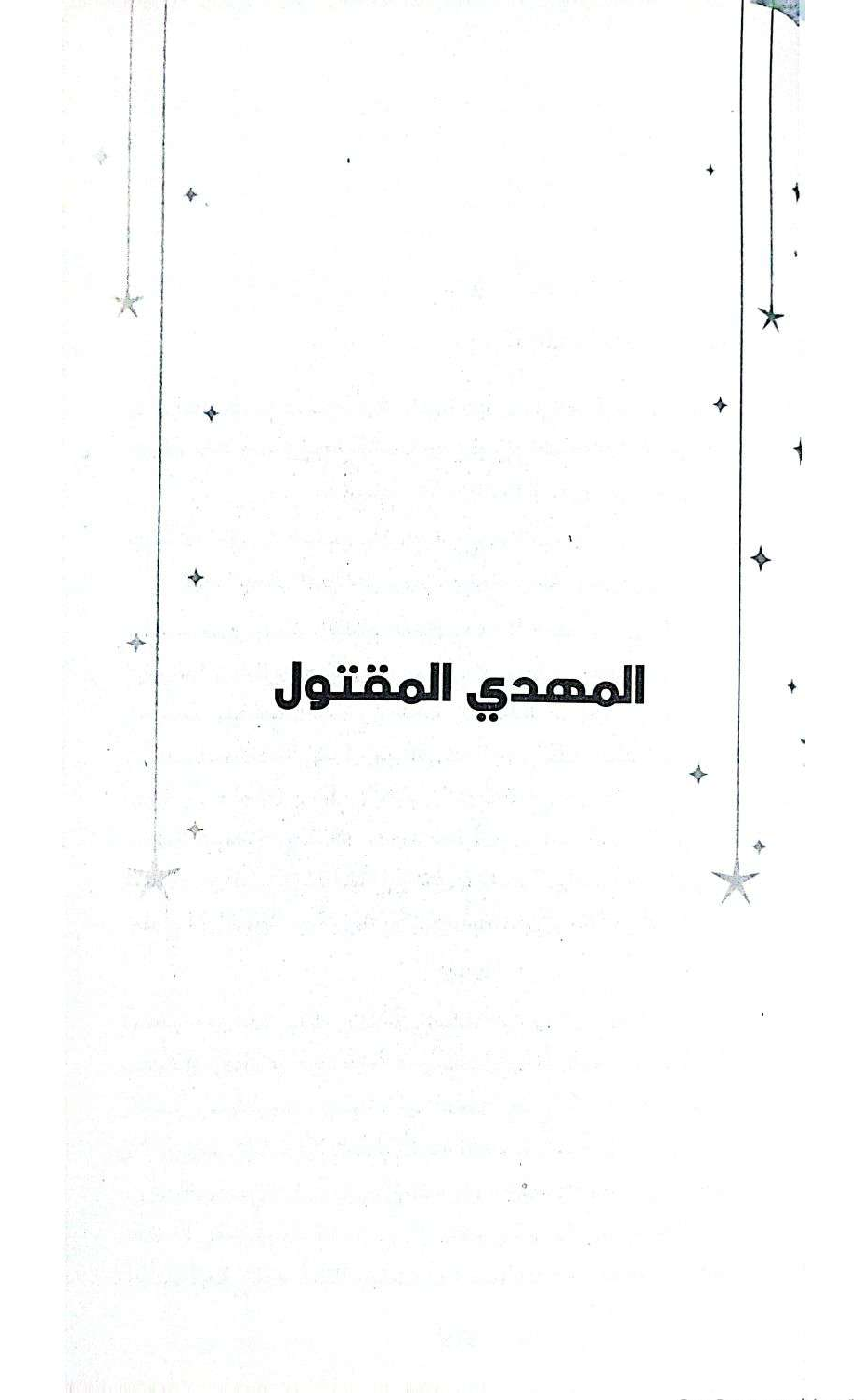
دخلت الوفود على أمير المؤمنين، جلس الأمير واثقًا وجواره ابنه يزيد، واثقًا كان مثل أبيه الذي تكلم فعظم أمر الإسلام وحرمة الخلافة وحقها وما أمر الله به من طاعة ولاة الأمر، ثم ذكر يزيد وفضله وعلمه بالسياسة وعرض بيعته.

شعر بارتجافة، سكن صوت رأسه، وضع يديه على فخذيه كي لا تبين رعشتها، وبينما يطمئن نفسه، حتى قام الضحاك فحمد الله وأثنى عليه ثم

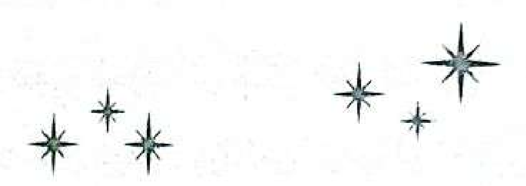
قال: «يا أمير المؤمنين إنه لا بد للناس من والٍ بعدك، وقد بلونا الجماعة والألفة فوجدناهما أحقن للدماء، وأصلح للدهماء، وآمن للسبل، وخيرًا في العاقبة، والأيام عوج رواجع، والله كل يوم في شأن، ويزيد ابن أمير المؤمنين في حسن هديه وقصد سيرته على ما علمت، وهو من أفضلنا علمًا وحلمًا، وأبعدنا رأيًا، فولِّهِ عهدك واجعله لنا علمًا بعدك ومفزعًا نلجأ إليه ونسكن في ظله».

وقام رؤوس القوم وقالوا مثل الضحاك، ولم يبقَ سواه، حتى نظر الجميع إليه، قال الأمير: «وأنت يا ابن المقنع، ما تقول؟». قام حينها وقد هدأ ارتجافه، وتقدم بين الجلوس حتى وقف أمام رأس أمير المؤمنين، وأمسك سيفه وسحبه شبرًا ثم أشار إلى أمير المؤمنين وقال: «هذا أمير المؤمنين، فإن هلك فهذا»، وأشار إلى يزيد. «ومن أبى فهذا»، وأشار إلى سيفه، فقام أمير المؤمنين من مكانه وقال: «اجلس، فأنت سيد الخطباء».

وما مر العام، حتى صار يزيد خليفة، وعاد يزيد بن المقنع إلى وادي القرى وحيدًا على فرسه، وقد ترك كل الناس خلفه، وظل وحيدًا حتى مات.



المهدي المقتول



قال الأستاذ عبد الملك:

حكى الجد أحمد الدسوقي، فيما رواه عن أجداده بسندٍ يصل إلى ثُمامة الضال، تارك الحشاشين إلى أرض الفراعين: «دع عنك حملك، فاليوم مطر، وغدًا طين، وبعد الغد ريحٌ تُثقل الطريق».

قالها عابسًا، أو بالأحرى، بلا تعبيرٍ واضح، كأن وجهه صلب، لكنه لا يُشبه التماثيل التي كان يحرسها، فوجهه مُجعدٌ حي، رغم اندثار الحياةِ حوله.

يومها كان الطريق غامضًا، لا هدف واضح ولا بلاد تظهر، والنيل، حتى النيل، أسمع هديره بالغرب، لكني لا أراه ولا أرى فلاحيه، ضللت الطريق؟ نعم، ضللت الطريق، بعد أن أفقت من الحشيش ضللت الطريق، كنت مع الحشاشين قائدًا للعالم، حالمًا بالجنة على الأرض، لكني أفقت، أفقت بعد أن قتلت، وبعد أن قُتلت، ضربوني، انتظرت أن يقتلوني، لكني تفاجأت بأن قيدي مفكوك، وكلهم في سكرتهم، هربت، نعم هربت، أنا الذي ارتضيت الموت، هربت منه وخفته، سعيت إلى الحجاز فتركته إلى الشام ثم إلى الفارما وبعدها بلبيس، اتبعت خُطى الفاتحين ولم أصل، إلى أيِّ شيءٍ أريد الوصول؟ لم أعلم.

***

خلعت ردائي الحريري، ورميت خاتمي اللؤلؤي بقلب الصحراء وحملتُ جُعبة صوفية، وسرت جوار النيل ولم أصل، لا أملك دليلًا إلا زادي، والنجوم، والأرض، الأرض الغريبة التي لم أفهمها يومًا، ليست نفسها أرض الحجاز والشام، الأرض هنا، لها حديثٌ تسمعه، حديثٌ يأخذك إلى مناطق بعينها، كان من هذي المناطق، صخرةٌ ضخمة جوار مضيقٍ نيلي، خُيل إليَّ سهولة عبوره، حتى ربطت الجعبة على ظهري، وربطت رأسي بخرقةٍ طينية، حتى لا يخاف مني النيل، لكني توقفت، سمعت همسًا من خلفي، التفتُّ حولي فلم أجد أحدًا

إلا الأرض والصخرة، فتراجعت خطوتين، ونظرت إلى الصخرة بتأملٍ لأجد حروفًا مكتوبة بخطٍ واضح: «من هنا، عبر أمير المؤمنين مروان بن مُحمد».

***

دُهشت، وسقط خوف الموت من قلبي، الخوف من جانب النيل الغربي.

عقدت رابطة طينيةً أخرى، وعبرت، كان الوقت فجرًا، لكن الزهرة لم تختفِ بعد، وحيدةٌ في السماء، كما أنا، وحيد جوار النيل وأرض الموتى. الموتى الذين مشيت جوارهم كما مشى أمير المؤمنين مروان، مشيت فوق خطواته، عبرتُ بلادًا ومقابر وأطلالًا، وبلادًا صغيرة وأشجارًا لم أستظل بظلها ولو دقائق، مشيت خلف الصوت، الصوت الذي قاد كل عظيم، لكني لستُ بعظيم، ولستُ نبيًّا، ولستُ شيئًا، لكني سمعته.

***

في اليوم الثاني والعشرين من عبوري، غضبت السماء فجأة، والنيل انحسر، والزاد شح، ولم أرَ في الأفق إلا كوخ زاهد، يُشبه جُعبتي الصوفية، التي ابتلت مع بدء المطر قبل أن يخرج رجلٌ من الكوخ دون أن أنادي أو أطرق، وقال: «دع عنك حملك، فاليوم مطر، وغدًا طين، وبعد الغد ريحٌ تُثقل الطريق».

***

بقيت معه الليالي الثلاثة، فلم أسأله سوى عما يجعله وحيدًا هنا، قال: «عشت جوار التماثيل عُمري مع جدي، لكن الأرض نادتني، فتركتها وجئت هنا، ضد خطوات مروان».

قُلت: «أتعرف أمير المؤمنين؟»، فخرج من الكوخ ونظر إلى كل الاتجاهات، ثم أغلق الباب، وقال بهمس: «لا تُعلِ صوتك باسمه، حتى لا يقتلك بنو العباس، أنا أنتظره».

ضحكت بسري، فقد مضى حُكمه وحكم بني أمية كلهم منذ قرون، لكنه بدا مُقتنعًا جدًّا، فسألته عن حكايته مع مروان، فقال: «هييه، بدأت القصة هنا، بنفس هذا الكوخ بعد أن ترك جدي الكبير الذي لم أره تماثيل الجنوب، قال جدي فيما حكاه لنا جدي عن جده المُعمم بن ثمامة الإدفوي: «مر مروان عليَّ

بحصانه الجبار، لم أكن أعرفه حينها، كان مُنكسرًا، ولمعان سواد حصانه باهتًا عند موضع ضربات قدميه، قدميه النحيلتين اللتين وإن كانتا لا تليقان بفارس؛ فإنهما بدتا شديدتين، مرَّتا على كل أنواع الصخور، لم يكن مَلِكًا، ولا جبارًا، كان عليه علامات انكسار، مُحاربٌ مهزوم، ليس بهارب، بل عزيز دار عليه الزمان.

***

لما رآني ظل فوق حصانه، وسألني بباقي غرورٍ دفين، عن خير طريقٍ للزاد ومملكة النوبة، بُهت، مُطاردٌ معه من الرجال أقل من أصابعه المكسورة، يسعى إلى الاحتماء بملكٍ آخر لا يعترف بغير السياسة؟!

دخلت الكوخ وخرجت بماءٍ يكفيه وحده، فأعطاه نساءه، ومضيت أمامه لا أعلم طريقًا غير قريتي للزاد، ودليلٍ سيهديه، أو أسعى معه ثلاث ليالٍ إلى النوبة. لم أعلم لِمَ قررت الذهاب معه، لم أكن غنيًا فأضمن معاش أبنائي، ولم أكن بلا دنيا فأتركه ليالي، كان وجهه آسرًا، موحيًا بثقةٍ غريبة، كثقة النجم في اهتداء الطريق، طريقٌ مجهول، لكنه سيصل، حتمًا سيصل، أمثاله لا يملكون غير الوصول أو الموت، لا يُعمرون بعد الهزيمة.

مرت الأيام وظهرت أسوار النوبة الطينية، فبُهت، لم يتخيل مدينةً بأسوارٍ طينية، لم يتخيل نفسه يهوي من فوق جبلٍ على طين.

***

زودته بالطعام، فأخذني معه جوار النيل وظهرت أسوار النوبة الهشة أكثر، دخلنا على الملك راكعين إلا هو، كان يُشبه حصانه، ينام واقفًا، ينكسر واقفًا، ينهزم وينتصر واقفًا.

نظر الملك متفحصًا، متعجبًا، كانت حاله بُنيَّة مثل ردائه، لم يسودَّ بغضبه، ولم يبيضَّ بمحبة مروان، كان غريبًا، وكان مروان ثابتًا حتى إن الملك لم يجرؤ على السؤال إلا بعد دقائق. قال: «لم تلبسون الديباج والحرير وتستعملون الذهب والفضة وذلك محرمٌ عليكم؟»، بُهت مروان، وتعجبت من السؤال، نظرت إلى مروان مليًا حتى ظننته يئس، بدا سؤال الملك طاردًا له قبل الحديث، فأمسك مروان ذؤابة عمامته وظل عابسًا ثم قال: «ذهب المُلك

منا وقلَّ أنصارنا، فانتصرنا بقومٍ من العجم، دخلوا في ديننا لبسوا ذلك على الكره منا».

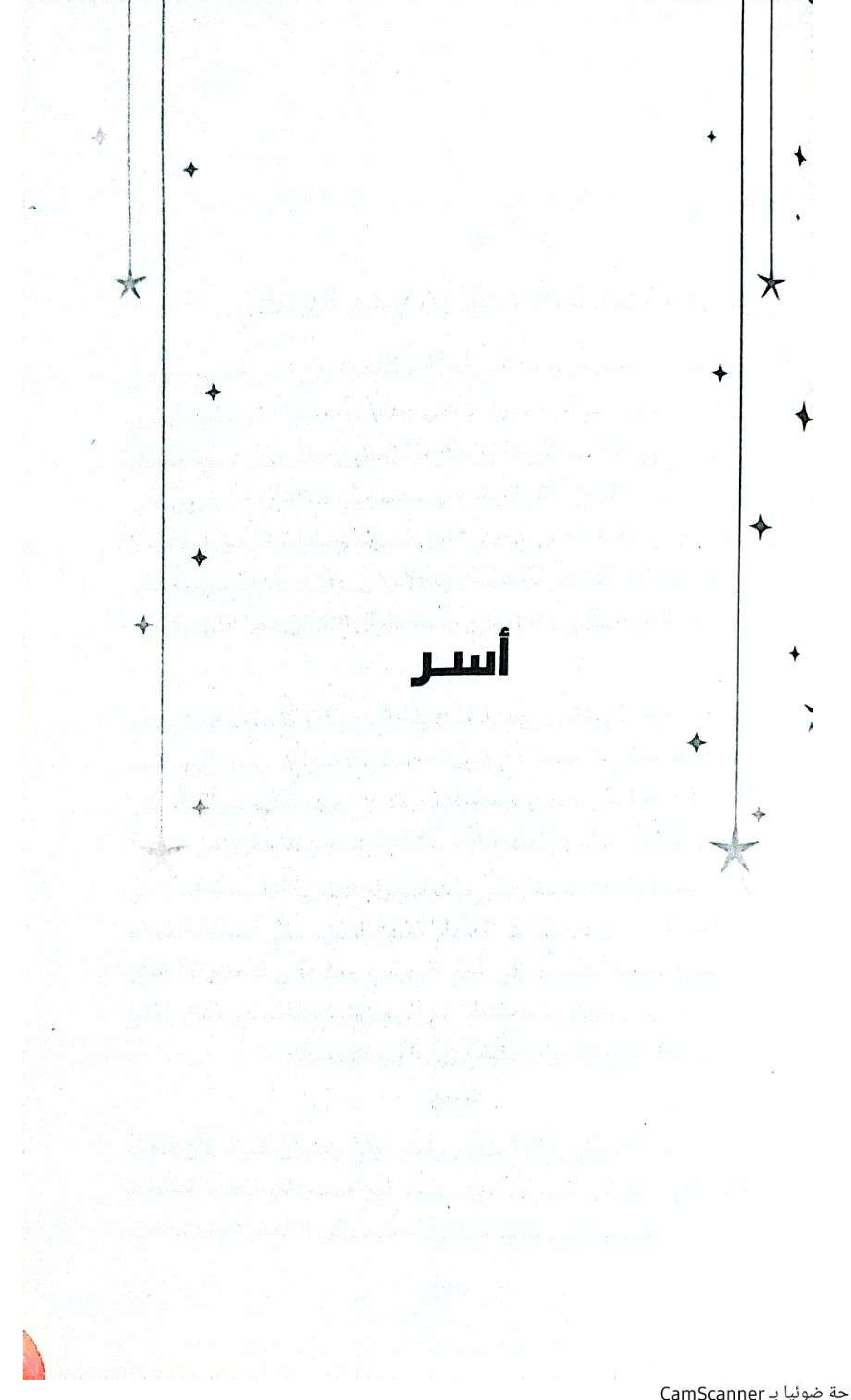
***

زمجر الملك وقال: «الضيافة ثلاث، وفوقها لا آمن عذابًا يحل بكم، ولخشيتي ارتحلوا».

لم يتعجب مروان، بل رأيته مبتسمًا، وخرج من القصر واقفًا كما دخل، ثم ركب حصانه ووجَّهه إلى الشمال مُجددًا، نظر إليه ولداه في غضب، كان انتحارًا، العودة إلى الشمال انتحار، بني العباس بكل مكان، لئن رأوا ظله سيقتلونه، لكنه يئس، نعم يئس، وأنا لم أعلم ما دافعي للبقاء معه، فقررت العودة إلى الكوخ مرة أخرى وتركه، ولم أكن أسوأ حالٍ من ولديه اللذين تركاه إلى النوبة، النوبة التي عدنا منها إلى الكوخ قبل أن يودعني قائلًا: «انتظرني، سأنتصر». كان يُشبه حينها القمر، تراه ولا تظنك مُدركه، ولم أدركه فعلًا، فلم يكتمل القمر مُجددًا، حتى جاءنا خبر مقتله بأبي صير، انتظره يا بني كما انتظرته».

***

تعجبت حينها، جدٌ يوصي أبناءه بأن ينتظروا رجلًا مات، لكني تعجبت من نفسي أكثر، أقطع كل هذي المسافة وراء صوتٍ لا يسمعه غيري، حتى أسمع خرافات الناس، تركت الكوخ في اليوم الثاني، وقابلت الرياح بطريقي إلى النوبة، ما زلت سائرًا إلى المجهول حتى وصلت الأسوار الطينية، كانت متهدمة، لكني أسير على خطاه، بل وتخيلت أني سألاقيه، سألاقيه حتمًا، بل وصرت أؤمن كما آمن صاحب الكوخ، بأني سأراه يومًا. انتظره يا بني كما انتظرته، أو سر على خطاه كما سرت أيضًا.



أسـر



قالت خادمة عبادة أمِّ جعفر بن يحيى البرمكي:

الدنيا، آهٍ من الدنيا، تُرى من أين أبدأ الحكاية يا بني؟ من أسري، أم من بيت الهاشمي، أم خدمتي لأم جعفر؟ آهٍ على جعفر وأمه، أمه التي وقفت أمامي بسوق النخاسة بين خدمها الأربعة يومها، منذ ثمانين سنة، فدارت عيناها بكل ما فيَّ، الطين على قدميَّ، أثر القيد على معصميَّ، الخطين الأحمرين على رقبتي من أثر الصوف، وحتى شعري الذي كسرته وسادات الأرض الجافة، لا أنسى وجهها حينها، كان صافيًا مثل النبيذ الأبيض، وفوق رأسها جوهرةٌ تغار منها الشمس، الشمس التي وقفت فوق رأسنا طوال الطريق نجرُّ القيد والأسر.

***

أشارت نحوي ولم يتغير وجهها، فقط ضاقت عيناها كأنها تختلسني لأمرٍ جلل، وأنا منذ تركي لأرمينيا في وجل، وضجر، وصراخٌ، وعدم فهم، كيف لطفلةٍ في العاشرة، أن تتخيل مستقبلها ببلادٍ لا تعرف عنها شيئًا؟ آهٍ على العمر الذي انقضى، لماذا لم أمت شابة، لماذا بقيت حتى التسعين من عمري؟

أخذوني وحذونا ماء دجلة، حتى بدت الأسوار الدائرية الضخمة، لم أرَ في حياتي شيئًا أفخم من هذا، كانت الأسوار تشغل الأفق، حتى السماء، السماء، كانت تختبئ خلفها، همستُ إلى أحد الحرس: «ما هذي الأسوار؟»، فقال بغلظة: «ألا تعرفين بغداد يا حمقاء!». لم أفهم وقتها ماذا تعني بغداد، لكني شعرت أن داخل هذي الأسوار سأُبتلع إلى الأبد، وقد حدث.

***

دخلت القصر الشرقي، فلم أستطع وضع عينيَّ بالأرض كثيرًا، كان الذهب في كل مكان، الألوان، حُجرات الوصيفات غير محدودات العدد، الطاولات المزخرفة، المزهريات التي تشبه عناقيد العنب، ركن الطعام المسمى عدن،

والطاووس على باب حجرة جعفر، جعفر الصغير، الذي لم يصر يومها صغيرًا بعد.

***

أمرتني عبادة بأن أسير مع ثلاث خادمات، فحممنني وطيبنني وأخذنني إلى غرفةٍ فسيحة، لا تُشبه شيئًا رأيته، وانتظرت بها وحدي أعد النجوم من نافذتها الزرقاء اليمنى، فأشرت إلى الدبرانِ والثريا وفُتح الباب، التفتُّ، فإذا بفتى جميل، قوي البنية ينظر إلى الأرض، وأُغلق الباب ودار بهذي الليلة ما دار.

***

أحببته يومها وإن كنت مجرد خادمة لأمه، بل وصرت من الثلاث المخصصات لتجهيز المرأة التي يدخل بها جعفر كل جمعة، كُنت الأولى ولم أدركه بعدها كما الدبران يتبع الثريا.

***

مرت الليالي بالقصر، ولا تزيدنا الأيام إلا بذخًا، وجعفر يزداد علمًا وكبرًا، كان يبتسم لي إذ يراني، لا أظنه كان يشعر بحبي، ولا أظنني أحببته إلا لأنه الأول، والأول يبتسم دائمًا وإن عبس وتولى.

بقي الوضع هكذا حتى مات الخليفة ومولانا، وصار الرشيد خليفة، وصار جعفر وزيرًا. لم أفرح له، كنت أراه في اليوم مرات، والآن، ذهب مع كل متاع الدنيا، ذهب مع الشعراء ومديحهم ومع الخليفة وسلطانه، رأيته يفعل كل ما يريده، رأيت الخليفة يُطيعه، رأيت الجميع يسجدون أمامه، وسمعت الشعراء، كل الشعراء يمتدحونه، رأيت ورأيت ورأيت، وهو لم يرني بعطفٍ منذ ليلة توليه الوزارة.

***

مرت الأيام باهتة، وما زال وجه سيدتي عُبادة مثل النبيذ الأبيض، لم تتغير، ولم تتغير الأيام حولي، كانت تشبه أيام الأسر الأولى رغم النعيم، حتى دعوت بكل صلاةٍ أن أُباع، ولم أظن أن الله يستجيب بهذي السرعة فباعوني لمحمد بن عبد الرحمن الهاشمي، تركت القصر، تركت النعيم وسيدتي عبادة، تركت جعفر.

***

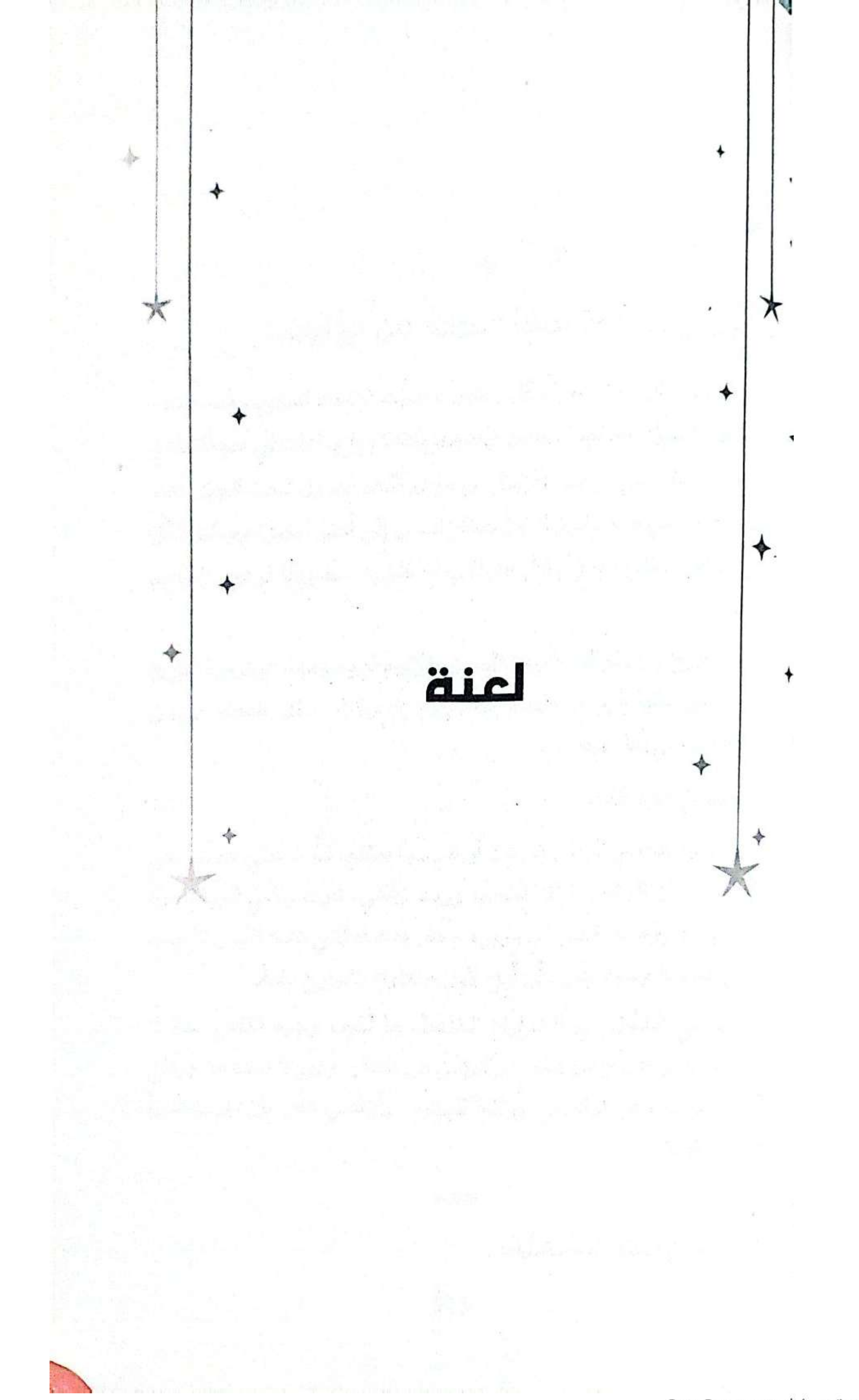
كانت الأيام في بيت الهاشمي أبسط، أنهي كل أعمالي وأجلس، بل وربما خرجت للسير جوار دجلة حتى أصل إلى الجسر الأعظم، لم يسمعني أحدٌ مثلما سمعني دجلة، شكوت له كل شيءٍ من الأسر وحتى جعفر، جعفر الذي غطى صوته كل المدينة، كل الناس لا تتحدث إلا عن عطاياه وعن بطشه، عن قسوته ورحمته، عن سطوته وقوته. لم أتخيل أن يحسبه الناس أقوى من الخليفة، أقوى من الفارس الحجري فوق قاعة الخليفة الكبرى فوق بغداد كلها.

***

وفي يومٍ غائم، اتجه الفارس الحجري فوق القاعة العظمى لأول مرةٍ ناحية الشرق، ناحية خراسان، ورأيت زحامًا شديدًا جوار الجسر، تقدمت أكثر، حتى تبينت رجلًا مصلوبًا يسقط الدم من عنقه، دققت بملامحه، كان هو، هو لا أحد غيره، كان جعفر. لم أصدق، حتى دموعي لم أصدقها، لم أعلم من هذا، جعفر الصغير الذي كبر فوقي، أم الوزير المصلوب؟ آهٍ من الدنيا، آهٍ من الدنيا.

***

لم تنتهِ الحكاية، بقي فصلها الأخير يا بني، فبعد مرور تسع جمعاتٍ من مقتل جعفر، عدت من جوار دجلة إلى بيت الهاشمي عند الغروب، فإذا بسيدتي عبادة عندنا، ناديتها سيدتي فبكت، كان وجهها ضعيفًا شاحبًا، حتى بريق عينيها انطفأ، لكنه عاد بسيطًا لمَّا أعطاها سيدي صدقة، رحلت أم جعفر بالصدقة، ورحل الغربان بلحم جعفر المصلوب، وبقيت أنا هنا فوق التسعين لأحكي لك حكاية الدنيا.



لعنة



قال حصان الخليفة فيما سمعه من حكايات:

الرياح، هي الرياح، رسولُ كل زمان، وصوت السماء المهيب. بصحبتها، وقفت تحت الجبل الأعظم، فسمعت بكاءها، بكاء الرياح، نقلت لي صوتًا لطفلٍ يصرخ، وأمٍ بلا ثدي، وجملٍ عَطِش، وصوتَ أقدامٍ تهرول تحت الجبل أمام عصا فرعون الذي صعد فوق الجبل، نظر الناس إلى أعلى الجبل، وسكت الكُل حتى الأطفال، ونفخ البوق وقال الحاجب المغلوب: «معبودنا فرعون العظيم سيتكلم».

هبت الريح مرة، فزكمت أنوف الجوعى لكنهم لم يعطسوا، هبت مرة أخرى حتى احتمى منها فرعون نفسه، لكنهم لم يتحركوا، حينها ضحك فرعون وقال: «أليس لي مُلك مصر!».

قال حصان الخليفة:

في يومٍ أزعجتني الرياح فعرفت أن مصيبةً ستقع، فثُرت حتى غضب مني الخليفة هارون الرشيد، لكنه ابتسم، وربت رأسي، ثارت بأذنيَّ الرياح مرة أخرى، وثُرت بوجهه، فضربني وزيره جعفر بعصاه التي تشبه الجبل الأعظم، وأشاح الخليفة وجهه وأمر بأن أباع لأول صعلوكٍ بشوارع بغداد.

سار بي الخيَّال في الشوارع الخلفية، ما أغرب وجوه الناس هنا! لا تستطيع تمييز الفرح من الكدر، والمؤمن من الكافر، ودور العبادة من روائح الخمر. سرت حتى أزكمتني روائح البخور، وأوقفني عمر بن مهران أسوأ صعلوكٍ قابلته.

***

قال حصان الخليفة «سابقًا»:

صرت أشرب الخمر مع ابن مهران، أعود في الليل فأعد معه النجوم، ندق أبواب العاهرات ونتبختر بمصاحبة الليل، ونغني، ثم نغني ثم نغني. «حامل الهوى تعب، يستخفه الطرب». تَهب الرياح فأستيقظ، فأسمع ابن مهران: «إن بكى يحق له، ليس ما به لعب».

تهب الرياح مرة أخرى فيستيقظ هو الآخر، ويجد الخليفة الرشيد واقفًا عند رأسه، مُعطيًا إياه رسالةً إلى مصر، فتح ابن مهران الرسالة ليقرأ: «عُين ابن مهران واليًا على مصر، على أن يتركها موسى بن عيسى».

أفاق ابن مهران مرة أخرى وأخرى وأخرى، وغنت بأذنه الرياح لكنه نظر إلى عينَيْ الخليفة، لم يستطع قراءةَ شيءٍ فيهما، لا حق ولا باطل، لا يصير واليًا على مصر غير جبلٍ من الجبال، فكيف بشارب خمر!

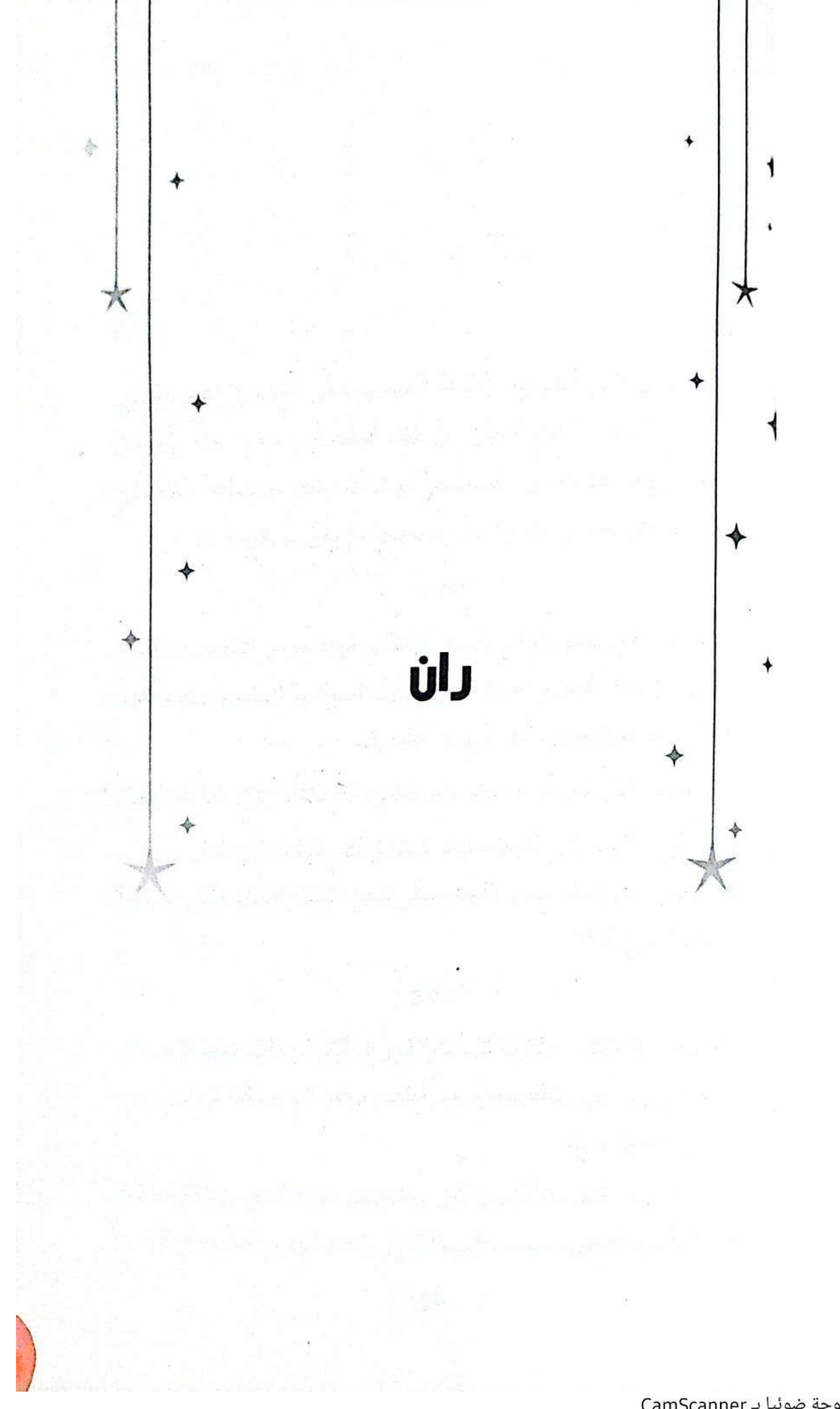
***

قال حصان الوالي -والخليفة سابقًا-:

لم نُقابل أحدًا من العربان، سمعنا صوت الرياح كل الطريق، أخافتنا ووقفنا عند الجبل الأعظم كأننا قُيدنا إليه، ورأينا من تحته وسط الليل نارًا، ولم نسمع مجددا غير صوت الرياح، دخلنا الفارما، تقدمنا في كل ليل، لم نسمع في البيوت بكاءً، ولم نسمع في النهار غير أصوات الفرح، ودلنا الناس على مدينة العسكر، بطريقٍ يتلو أول كنيسةٍ على الطريق الشرقي، عبرنا الكنيسة بليلٍ فوجدنا الناس قد اجتمعوا حول موسى بن عيسى. لم يكن مهيبًا، لكن الناس جلسوا تحت قدميه، كان يُشبه أحجارهم القديمة، وجهه ثابت لكنه محبوب، تفرق الناس بعد انقضاء المصالح، وسار موسى بن عيسى نحونا، وقال لابن مهران: «ألك حاجة؟»

فأعطاه ابن مهران رسالة الخليفة.

لم يغضب ولم يفرح، فقط أمر خادمه أن يُحضر حصانه، وقال: «لعن الله فرعون حيث قال: «أليس لي مُلك مصر»».



ران



قال:

وقفت طوال الليل أمام باب القاعة العظمى التي نام فيها نديم سيدي، وقفت أعد الساعات، سكتت القيان عن غناء أبيات أبي نواس، ولم يفُق من نومه، لم يخرج، ابتلت الأرض تحت قدميَّ، وجفت عيناي من البكاء، حُكم عليَّ بالإعدام، هذا آخر يومٍ لي بالدنيا، ونديم سيدي لم يفُق من نومه بعد.

***

كانت ليلةُ أمسٍ أسود ليالي الدنيا، أيقظني فيها حرس القصر من النوم صارخين: «يا طباخ الشؤم، أمسك نديم سيدك الدجاجة المشوية ولم يأكلها، اليوم آخر يومٍ لك بالقصر، آخر يومٍ لك بالدنيا».

أمر سيدي بقتلي بعد أن خدمته عشر سنين، كل هذا لماذا؟ لماذا يا حميد؟!

قالوا لي: «اذهب إلى نديم سيدك فيشفع لك عنده». كان أملي الوحيد، وكان السبب، كل الطعام مُد أمامه حتى شبع، لماذا أمسك بآخر دجاجة وتركها! ما ذنبي أنا؟!

***

أمام باب الانتظار، تذكرت كل أيام الجوع، أيام لم نأكل فيها إلا الجزر، كان أطفالي يصرخون كالعصافير ولم أطعمهم غير الجزر، كُنا نتنافس عليه، فلا يبقى بالطبق شيء.

تذكرت يوم دخلت هذا القصر لأول مرة، قصر حميد الطوسي الكريم، قائد جيش المأمون العظيم، صاحب البيت الكبير والمال الوفير، قُلت وداعًا للجزر،

سنأكل اللحم، ودخلت على أهلي في أول يومٍ بدجاجةٍ مشوية، قُتل على إثرها الطباخ الذي سبقني بالقصر لأن نديم حميد القديم لم يأكلها.

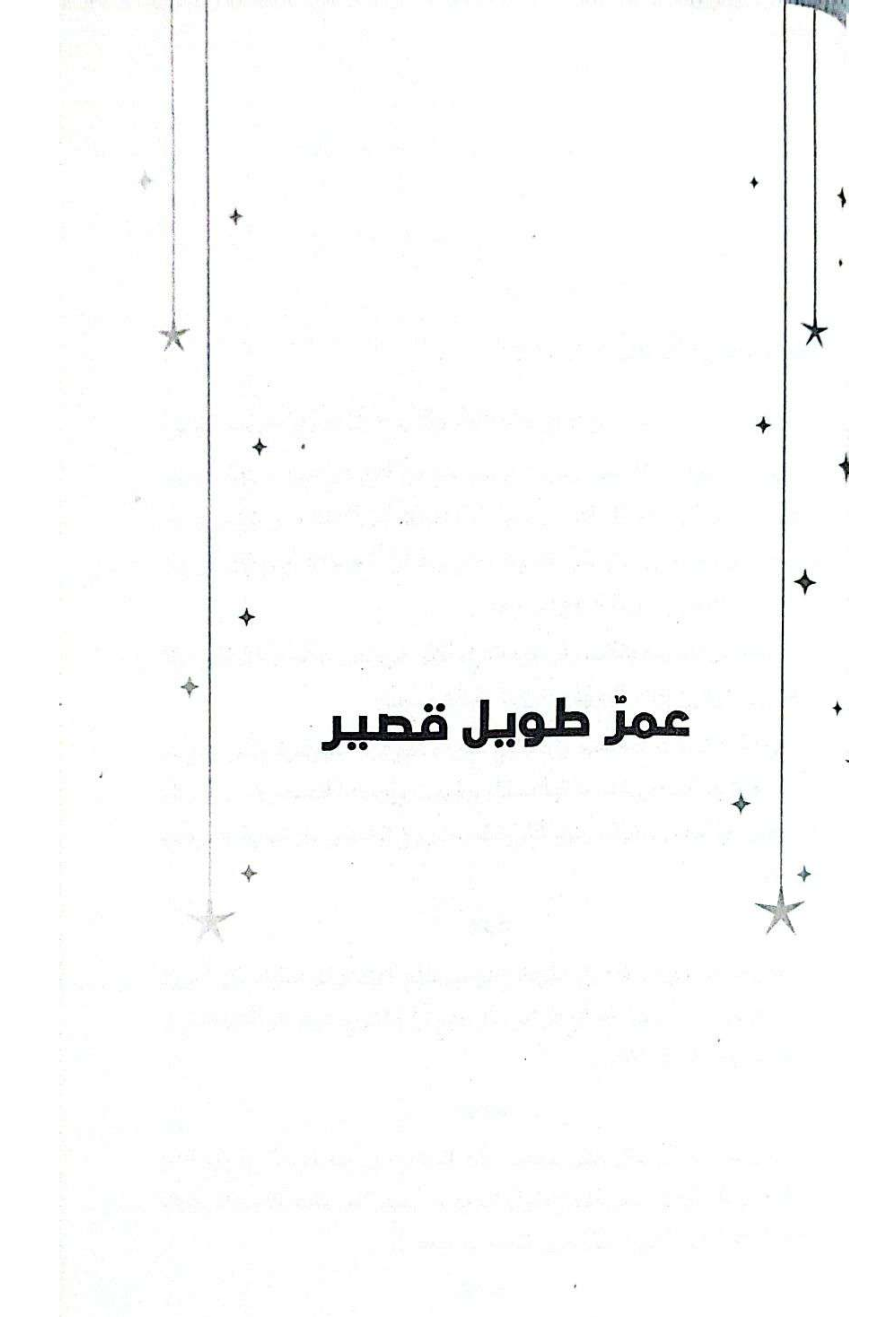
***

طالت الساعات، وأنا أقف أمام الباب حتى سمعت زقزقة عصافير الفجر، سيأكل أبنائي الجزر إن تأخر في نومه أكثر، سيتيهون كما تهت صغيرًا، أرجوك لا تتأخر، لا تتأخر.

***

خرج النديم أخيرًا ضائقًا يتطوح، أخبرته خبري، سيقتلني سيدي لأنه ظن الدجاجة غير ناضجة، ابتسم لي كأنه رأى بوجهي وجوهًا أخرى، وأخذني إلى سيدي وشفع لي ببساطة. قال سيدي: «سأغفر له، لكن لا بقاء له بالقصر، علمنا موضعنا في الآخرة، ولا نريد من أحدٍ أن ينغص علينا الدنيا».

وعُدت إلى بيتي مطرودًا حاملًا كيسًا من الجزر.



عمرٌ طويل قصير



قال مُهذب المعتصم بالله:

كُنت معه يوم وُلد، ويوم بويع بالخلافة، وكُنت جوار سرير مرضه الأخير.

عشت بسمرقندٍ طفولتي وقدمت بغداد مع من قدم من عبيد ماردة الجدد. آهٍ على ماردة، لم تعتَدْ كل قصور بغداد مذ قدمت من السغد، لم تنم مُرتاحة، وإن نام جوارها هارون الرشيد نفسه، حتى بعد أن أنجبت له ابنًا، قال كل من رآه: «يُشبه النبي صلى الله عليه وسلم».

ابتسم الرشيد ولم يتكلم، رأى فيه التُرك أكثر من العرب، ألم يكفِك البرامكة يا هارون، ليكون ابنك شبيهًا بالتُرك؟ «سَمِّه مُحمدًا».

يومها، ابتسمت لمحمد، وأعطتني ماردة جوهرة كجوهرة رأس زبيدة، زوجة الرشيد العظمى، فصغتها بخاتم وضعته بإصبعه الصغيرة، ما أجملك يا صغير! ما أجمل حمرة وجهك التي تشبه شروق الشمس من ناحية سمرقند، والسغد!

***

كبر محمد، وزاد شعور ماردة بالوحدة، لم تعتد رغم اعتياد كل العبيد الذين جاؤوا من أجلها، تسأل الرشيد كل يومٍ أن يشتري عبيدًا من أهلها كي لا تشعر بالوحدة، ولا تتغير.

***

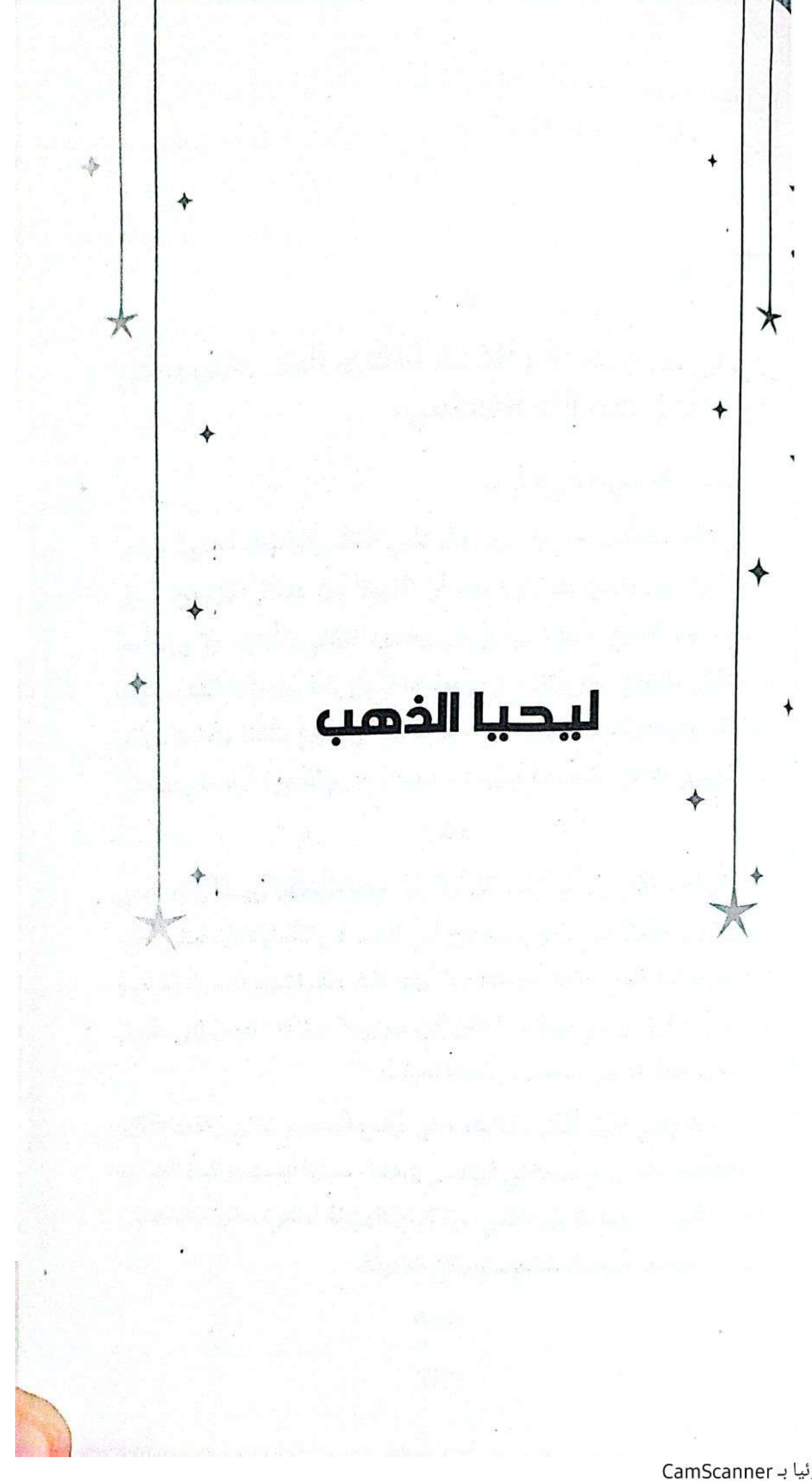
وفي يومٍ ضيِّق مثل عقل محمد، مات الرشيد، ورأيته ممسكًا بسيفٍ أمام مرآةٍ بغرفة ماردة، وقال: «ما أطول العمر يا مُحمد! لو عشت كما عاش أبوك ستملك الدنيا وما فيها، ما أطول العمر يا محمد!».

***

مرت السنون، وامتلأ جناح ماردة بأهلها الشرقيين، وما زال وجه محمد كشروق شمس الشرق، وصارت ذراعاه كجبالنا ومات المأمون وصار محمد خليفة، أسموه المعتصم كما أسموه محمدًا، وبويع كأبيه، وشعرت ماردة بالأمن لأول مرة في قصور بغداد.

***

اشترى المعتصم عبيدًا أكثر، وجنودًا أكثر، كي تألف أمه قصوره، واكتظت بغداد بالشرقيين، حتى ضاقت بالعرب وتغير وجه المعتصم ولم يعد يشبه الشمس، وكان إذا غضب لا يبالي من قتل وما فعل. صار يُشبه السيف حين يلمع جوار نار، النار التي جعلته يترك بغداد كلها فبنى بشمالها سامراء وسكن هناك حتى أتاه الموت، حينها رأيته مريضًا في مرآة أمه، وسمعته يقول: «لو علمت أن عمري هكذا قصيرًا، لما فعلت ما فعلت».



ليحيا الذهب



حكى لي عن جده، بائع الخضار الأقرع، الذي عاش بمصر وقت المُعز لدين الله الفاطمي:

الله حي، الله حي، لكني لا أراه.

كان الأفق باهتًا، لا حر ولا برد، مثل قلبي التائه بالضبط. أمسيت يومها وسط الدراويش بمحيا طباطبيا بعد أن انتهينا من صلاة التراويح، أميل برأسي معهم، أصيح: «الله حي» وأُكمل وحدي: «لكني لا أراه»، ولا يراه أحدٌ من ساكني الأكواخ بجزيرتنا التي يحوطها النيل كما يحوطها الفقر، كيف يرانا الله والريح تهدم بيتي؟! كيف يرانا الله والجوع يأكلنا وأمامنا خلف النيل قصور القاهرةِ الجديدة تُبنى، في انتظار قدوم المُعز؟ أولسنا رعيته؟!

***

لكني أحب الله، ولذا أنا أذهب كل ليلةٍ إلى محيا طباطبيا وسط أحفاد النبي ودراويشهم، وأذكر الله معهم، صحيح أني أذهب في الأصل لآكل، لكني أحب الله ونبيه، الله الذي -كما أخبرتك- لا أراه، قُلت ذلك لشيخ المحيا، فابتسم ووضع يده فوق رأسي وقال: «امضِ إلى طريق الله زاهد. امضِ إلى طريق الله عابد. حِمل الذهب صعيب، وأنت ضعيف».

قضيت باقي الليل أُفكر بكلامه، حتى وُضع السحور لكني زهدت الأكل، ووقفت أمام القمر ولم تُسعفني الشمس بإجابة، حينها آيست وركبتُ المعدية أتأمل القصور الجديدة من خلفي، والأكواخ الهزيلة أمامي، حتى وصلت إلى كوخي الضعيف مُجددًا، ضعيف يسكن ضعيفًا.

***

مر النهار عليَّ ولم أتحرك من كوخي، لم أستطع النوم ولا فهم كلام شيخي، حتى خجلت أن أضع وجهي بوجهه مرة أخرى، فقررت عدم الذهاب إلى المحيا حتى وإن قرصني الصوم والجوع.

بعد العشاء بساعتين، سمعتُ ضجيجًا من كل ناحية، وخرجت فرأيت مشاعل النور في كل مكان، والكلُ يهتف حتى كأن الأكواخ تحركت وهتفت معهم، سألت الناس عما حدث، فقالوا: «جاء المُعز إلى مصر وقرر أن يمر من جزيرتنا للوصول إلى قصره، حتى لا يمر بالفسطاط القديمة».

ضحكت رغم الجوع، وظننت القمر يضحك هو الآخر، كان الأمر ساخرًا، أحمل أنا هم طعامي، ولا يحمل الحاكم بجلالة قدره إلا هم مخالفة السابقين المُخالفين له.

***

سِرتُ مع الناس حتى أراه وأضحك، أو ربما آكل، فوقفت على الشاطئ وسط قناديل الناس، حتى جاءت السفينة هادئة وسط هالةٍ من القناديل الزرقاء، تحمل المعز بمقدمتها كأنها تُخيفنا به، كان جامد الوجه، رداؤه أكثر سوادًا من ماء الليل ووجهه أكثر بياضًا من القمر فوقه، وما إن رست السفينةُ حتى نزل بهدوءٍ غريبٍ كأنه يمشي فوق عظام. وتراصَّ الناس على جانبيه حتى مر وخلفه رجاله وسط الهُتاف، إلا أنا كنت أضحك، لكني توقفت عن ضحكي إذ نظر بوجهي لدقيقةٍ دون أن يتكلم، ثم قال: «أوتؤمن بالله؟».

***

ارتبكت، الحاكم بنفسه يسمع وسواس قلبي؟ كيف عرف حيرتي؟ ولماذا وقف أمامي من بين كل الناس؟ ليتني هتفت معهم.

استعدتُ ابتسامي وانحنيت قليلًا ثم قُلت: «أؤمن بالإله الذي يعبده سيدي المُعز».

حينها رمى لي قطعة كبيرة من الذهب وأكمل طريقه، وتركني والقمر من خلفه.

***

جلستُ طوال الليل أمام القطعة الذهبية، سألتها: «أنتِ رسول الله إليَّ، صحيح؟ هو يسمعني، صحيح؟».

لم تُجبني ولم تُسكت جوعي، لكني نمت، رغم عدم اطمئنان الكوخ الهش إلى الذهب، ورغم الجوع.

***

في النهار ذهبتُ إلى السوق، فصنعتُ خاتمين ذهبيين، نقشتُ على أحدهما «المُعز» وعلى الآخر «الله» وبعتُ باقي القطعة واشتريت غلال شهر، ومررتُ على محيا طباطبيا وظللتُ أضحك حتى خرج لي الشيخُ. رفعت يدي حتى رأى الخاتمين، فابتسم وقال: «حمل الذهب صعيب»، ودخل البيت ولم يُزد كلمة.

***

في المساء، ذهب كلُ الناس بعد التراويح إلى القصر الجديد ليشهدوا بيعةَ المعز. فتراصوا على جانبَيْ البهو الكبير وجلس المُعز بردائه الأحمر في منتصف القاعة، كأنه تاجٌ حجري، ووقف أمامه شيخ طباطبيا وقال: «أنتَ لا تنتسب إلى آل البيت ولا تجوزُ لك البيعة».

حينها علا الضجر بين الناس وزمجر المُعز ووقف فجأة، وتحول وجهه كأنه خرج من النار لتوه، ثم نظر إلى كل الاتجاهات ونادى كل خدم القصر، ثم أخرج سيفه وقال: «هذا حسبي»، وأمر الخدم أن ينثروا الذهب على الناس وقال: «وهذا نسبي»، فهتف الكلُ: «يحيا مولانا المُعز، يحيا مولانا المُعز، يحيا مولانا المُعز».

حتى ذاب بينهم شيخُ طباطبيا، وخرج من القصر لكن عينيه التقتا بعينيَّ، فنظرتُ إلى الخاتمين مرة، ونظرتُ إلى الناس من حول المُعز خمس مرات، ونظرت إلى الشيخ خلفي مئة مرة، ثم صحتُ مع الناس: «يحيا مولانا المُعز».

الحكاية الأخيرة..
شهرزاد لا تموت



وحين سألتُ الأستاذ يوم مات: «أهكذا حدثت الحكاياتُ. أهكذا كانوا؟»، ابتسم وأشار إلى السماء بوهنٍ، وحكى حكايته الأخيرة.

قال الأستاذ عبد الملك: قال الأعرج بن مسيلمة العبقري:

هذا هو البدر الألف الذي أراه فوق قمة جبل هذا الكهف، عشت كثيرًا، مات كل أبنائي منتحرين من فوق هذا الجبل، من تحت هذا البدر، أرسلتُ الحكايات مع الريح، والشعر في لسان الجان، يظن الشعراء والحكائين أنهم القائلون، نحن القائلون لا هم، ولذا يموتون بعد الحكاية إن لم يُبدلوها، إن بدلوها ستتلون جعبة حكاياتي الخضراء بلونٍ أحمر، وسأموت، ولذا لم أخبر أحدًا السر كما فعل أبنائي الذين ماتوا، حكاياتي لا بد أن تبقى على أصلها أبدًا.

***

في يومٍ خفتت فيه الزُهرة قبل البدر بثلاث ليال، سمعتُ صوتًا من فوق الجبل: «أيا عجوز، قتل شهريار كُل نساء المدينة، أَخرج لي من جعبتك الخضراء حكايات لأسحر بها الملك فلا يقتلني».

دققت في الصوت، رجلٌ أم امرأة، العمامة على رأسه، الذؤابة الواصلة لقدميه، الصوت الأنثوي. «فرغت من جعبتي الحكايات، كل حكاياتي تقتل أصحابها».

أصر -أو أصرت- أن أحكي، أخبرتها مُجددًا، حكاياتي تقتل، قال: «الموت نازل بي لا محالة، إما أن تقتلني الحكايات أو يقتلني الملك». قُلت لها بوهن: «إن بدلت في الحكايات سأموت ولن تجد مني حكايات بعد».

***

وافق -أو وافقت- ونزل من فوق الجبل وغطى وجهه بالذؤابة، ثم دخل الكهف واستفسر بيديه عن مكان الحكايات، وضعت يدي على كتفه، خر على ركبتيه، كشفت العمامة فغاصت يدي بشعرها حتى لامستُ جلدها، كانت امرأة، قُلت: «كُل الحكايات، كل الحكايات، كل الحكايات تقتل، لا تُبدلي في الحكايات أبدًا».

***

أغمضتُ عينيَّ، فغاب ملمسُ شعرها عني فجأة، فتحتهما بسرعة، نظرتُ إلى جُعبتي الخضراء، فلم أجد بها أي كتابٍ أو حكاية، سرقتها كلها، لكن لون الجعبة ما زال أخضر، إن انقلب أحمر سأموت.

صعدتُ الجبل، وانتظرتُ موتي، إن بدلت سارقة الحكايات بها، إن تغير اللون الأخضر بالكهف.

مرت الليلة الأولى، بقي اللون كما هو، رأيتها على صفحة القمر، تجلس على سرير الملك شهريار، خائفة، تنظر إلى الملك مرة بعين الشك، ومرة بثقة الحكايات، حكت له من حكاياتي: «بلغني أيها الملك السعيد، أنه كان تاجرًا من التُجار...».

مر البدر الأول، رأيتها واثقة: «بلغني أيها الملك السعيد أن الصياد قال للعفريت...».

جلستُ يومها فوق الجبل مثل الملك فوق السرير، أسمع صوتها من القمر، ومرت الليالي، واختفى القمر بعد أسبوعين، جلست بالكهف أتنصت وسط النور الأخضر، بدأت شهرزاد تحكي، زوجةُ ملكٍ خائنة، لا لا يا شهرزاد، لا تحكي هذي الحكاية، ستموتين كما ماتت، سيشقك الملك نصفين، سيقف عبيده السود عن قدميك ويُمسك هو رأسك ليقتلك.

بدأ اللون الأخضر في التغير، بدأت شهرزاد بتغيير الحكاية: «لكنها استعطفته بأبيات شعرٍ وعفا عنها».

اللون الآن حولي أحمر، انتهت حكا...

ولفظ الأستاذ عبد الملك أنفاسه الأخيرة.



المصادر

هذي القائمة ليست قائمة مصادر، ففي النهاية، هذي قصص وليس كتاب تاريخ. لكن هذي قائمة شكر، للحكائين الأوائل وعلى رأسهم ابن هشام.

1 - مصادر الحكاية الأولى متنوعة، لأنها مُجمعة من أكثر من خبر، كان منها:

- خبر طسم وجديس.
- سبب مقتل عمليق ملك طسم. كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني. دار الفكر بيروت - الطبعة الثانية- مجلد 11 ص 167.
- حكم الملك على الفتى بين أمه وأبيه، وحال الشموس بنت عفار، ولجوء البعض للتبع حسان وهجومه على اليمامة وهروب الأسود لجبال طيء. كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني دار الفكر بيروت - الطبعة الثانية - مجلد 11 ص 168.
- خبر زرقاء اليمامة كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني. دار الفكر بيروت - الطبعة الثانية - مجلد 2 ص125.
- والجامع لأغلب أخبار طسم وجديس وجدته في المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. المؤلف: الدكتور جواد علي.. الناشر دار الساقي. الطبعة الرابعة ج1 بداية من ص335.

2 - خبر وفاة نزار بن معد: كتاب التيجان في ملوك حمير لعبد الملك بن هشام ص223.

رحلة تيه الحارث الجرهمي وعودته: كتاب التيجان في ملوك حمير لعبد الملك بن هشام ص191.

«والقصتين خففتهما قدر ما استطعت عن الأصل المذكور. دون الإخلال بالحكاية الأصل».

3 - خبر أساف ونائلة في السيرة النبوية -ابن كثير- جزء 1 – ص58 «وفي حكايتي توسعة كبيرة عن الخبر المذكور».

4 - خبر أن عبد الله بن جدعان قد وقع على كنزٍ للحارث الجرهمي: كتاب التيجان في ملوك حمير لعبد الملك بن هشام ص219 وجاء الخبر بتفصيلٍ أكبر في المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. المؤلف: الدكتور جواد علي.. الناشر: دار الساقي. الطبعة: الرابعة. جزء 7 ص96.

5 - خبر ضباعة وخطبة النبي صلى الله عليه وسلم لها وأزواجها: السيرة النبوية -ابن كثير- جزء 4 – ص597.

6 - أغلب أخبار امرئ القيس، اعتمدت فيها على ما جاء في كتاب: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام.. المؤلف: الدكتور جواد علي.. الناشر: دار الساقي. الطبعة: الرابعة ج6 بداية من ص49.

7 - قصة لقمان بن عاد، ونسوره السبعة. كتاب التيجان بداية من ص 369.

8 - بعض مِن أخبار أكيدر بن عبد الملك ورد في المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. المؤلف: الدكتور جواد علي.. الناشر دار الساقي. الطبعة الرابعة ج8 بداية من ص56.

9 - خبر أبي ذؤيب جاء في شعره إذ قال:

ما رأيت الناس فـي عســلانهم	من بين ملحود له ومضـــرح
متبادريـن لشـرجع بأكفهـــم	نص الرقاب لفقد أبيـض أروح
فهناك صرت إلى الهموم ومن يبت	جار الهموم يبيت غيـــر مروح
كسفت لمصرعه النجوم وبدرهـا	وتزعزعت آطام بطـــن الأبطح
وتزعزعت أجبال يـثـرب كلهـــا	ونخيلها لحلول خطـــب مفدح
ولقد زجرت الطيـــر قبـل وفاتـه	بمصابه وزجرت ســعد الأذبح

10 - خبر مروان وحويطب. جاء في العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي ج 4 ص 119.

11 - قصة الزبّاء، اعتمدت فيها على ما جاء في كتاب «تاريخ العرب المطول» الجزء الأول د فيليب حتى. ص99-100. طبعة دار الكشاف.

12 - ذكر قصر غمدان ونهاية حكم «ذي نواس» اعتمدت فيها على ما جاء في كتاب «تاريخ العرب المطول» الجزء الأول د فيليب حتى. ص74 لـــ 82.. طبعة دار الكشاف.

13 - خبر سنمار وقصر الخورنق.. اعتمدت فيها على ما جاء في كتاب: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام.. المؤلف: الدكتور جواد علي.. الناشر: دار الساقي. الطبعة: الرابعة ج5 بداية من ص200 واستخدمت فيها معلومات متناثرة من تاريخ الحيرة الطويل.

14 - خبر تولية الرشيد ولاية مصر لأخس من على بابه وقد كان «عُمر بن مهران كاتب الخيزران» وجاء هذا الخبر بكتاب تاريخ مصر في العصور الوسطى. ستانلي لين بول. ص101 طبعة الدار المصرية اللبنانية.

15 - خبر سيدنا معاوية مع يزيد بن المقنع، جاء في كتاب الكامل في التاريخ لأبو الحسن بن الأثير. دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان الطبعة: الأولى ج3 ص101.

16 - خبر الخادم الذي كان سيُقتل بسبب دجاجة مشوية ليست ناضجة ورد في كتاب "نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للتنوخي.. مجلد 3 ص100.

